

روايات الهلال

# النهاريات

عبد الرحمن منيف

REWAYAT AL-HILAL  
No. 453 - SEPTEMBER 1986



8  
M



# روايات الهلال

REWAYAT AL - HILAL

تصدر عن مؤسسة دار الهلال

العدد ٤٥٣ - سبتمبر ١٩٨٦ - محرم ١٤٠٧

No. 453 - SEPTEMBER 1986

رئيس مجلس الإدارة: مكرم محمد أحمد

رئيس التحرير: مصطفى نبيل

سكرتير التحرير: موسى عيد

## الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوى ( ١٢ عددا ) فى جمهورية مصر العربية تسعة جنيهات بالبريد العادى وفى بلاد اتحادى البريد العربى والافريقى والباكستان ثلاثة عشر دولارا او ما يعادلها بالبريد الجوى وفى سائر انحاء العالم عشرون دولارا بالبريد الجوى والقيمة تسدد مقدما لقسم الاشتراكات بدار الهلال فى ج م ع نقدا او بحوالة بريديه غير حكومية وفى الخارج بتسيك مصرفى لأمم مؤسسه دار الهلال وتضاف رسوم البريد المسجل على الاسعار الموضحة اعلاه عند الطلب

سعار البيع فى البلاد العربية للاعداد العادية من سلسلة روايات الهلال فئة ٧٥ قرشا للمقارء فى مصر

سوريا ١٨٠٠ ق س لبنان ١٨٠٠ ق ل الاردن ٥٠٠ فلس الكويت ٤٠٠ فلس العراق ١٦٠٠ فلسا السعودية ٧ ريالات تونس ١٦٥٠ مليما الخليج ١٢٠٠ فلسا الصومال ١٣٠ سى لاجوس ١٢٠ سى عدن ١٤٤ سنتا لندن ١٥٠ سينا انبسا ٢٠٠ دراخمه كندا ٥٠٠ سنت البرازيل ٦٠٠ سنت استراليا ٦٠٠ سنت السودان ٢٥٠ ق سودانى المغرب ١٥٠٠ هرنكا عزه والضفه ٧٥ سنتا دكار ١٠٠٠ فرنك اليمن الشماليه ١٥ ريال ايطاليا ٣٠٠٠ لبره

الإدارة دار الهلال ١٦ سارع محمد عز العرب - القاهرة

تليفون ٣٦٢٥٤٥٠ سبعة خطوط



# روايات الله

---

مجلة شهرية لنشر القصص العالمية

الغلاف بريشة الفنانة  
سميحة حسنين

# النهايات

تأليف

عبد الرحمن منيف



دار الهلال



على نحو من الانحاء ، فاجأ عبد الرحمن منيف قراء الرواية العربية بعمله الاول « الاشجار واقتيال مرزوق » في ١٩٧٣ : كان العمل ذاته أحد وجهي المفاجأة : رواية صلبة متماسكة ، مكتوبة بلغة تبدو معاصرة ، لكنها محددة ونفاذة ، لا ثرثرة فيها ولا تزويد ، بل الحاح لتوصيل حقيقة تحمل مذاق المصدق الجسارح : خلال لقاء عابر في رحلة قطار يقطع أرضاً عربية - من عمد لا يسميها الكاتب - يلتقي رجلان ، ومع الليل والحركة الرتيبة وكثوس العرق ، ومثل قطين البفين ، يتقاربان ، فيتقاسمان الطعام والشراب وخبرات الحياة والرواية - بعد - هي هاتان الشخصيتان ، عليك - بعد أن تفرغ من قراءتهما - أن تعيد ترتيب التفاصيل كي تتكامل أمامك صورة كل منهما .

الوجه الثاني للمفاجأة كان الروائي نفسه : قيل عراقي ، وقيل شامي ، وقيل - وهو الصحيح - انه من قلب الجزيرة العربية ، خرج للعالم الواسع ، فشرق وغرب ، ودوس حتى حصل على الدكتوراه في اقتصاديات النفط ، وكان يعمل آنذاك في مجال دراسته ، وكتب روايته الاولى وقد تجاوز الاربعين « عبد الرحمن من مواليد ١٩٣٠ » .

وبعد « الاشجار » . « تتابعت الاعمال ، ولعل أشهرها عند قارئه « شرق المتوسط » ، ١٩٧٥ : صرخة ممرورة وغاضبة في وجه التعذيب الذي يلقاه معارضو نظم الحكم في السجون والاقبية والزنازين والدهاليز ، في تلك المنطقة الواسعة المترامية من الشواطئ الشرقية للمتوسط حتى حافة الجزيرة العربية . ثم « سباق المسافات الطويلة » ، ١٩٨٠ « التي ارتحل فيها بالرواية العربية الى أرض ايران الشائرة في مطلع الخمسينيات ، وقدم لنا - لا من خلال لغة التقارير والسرد البارد للاحداث ، بل على طريق شخصيات ايرانية وبريطانية وأمريكية اكتملت لها أسباب الحياة والاقناع - انتفاضة الشعب الايراني بقيادة وصديق ، لاستعادة ثروته المنهوبة وحقه



الضائع ، ثم تحالف قوى الثورة المضادة فى الخارج والداخل  
لاجهاضها .

ومنذ بداية الثمانينيات غاص عبد الرحمن منيف - العربى الخارج  
من قلب نجد فى « مدن الملح » ، لتحقيق مشروعا روائيا طموحا ،  
ذا أهمية قصوى فى وجودنا العربى المعاصر ، أعنى التحسول من  
مجتمع البداوة لمجتمع النفط ، بكل ماصاحب هذا التحول ، ونتج  
عنه ، من تشنجات وتقلصات ومخاض اليم ، وأن يقدم « باتوراما »  
هائلة الاتساع ، اتساع تلك البادية التى كانت هادئة وساكنة  
تعيش مألوف حياتها بايقاعاتها الثابتة والمتجددة : دورات الصيف  
والشتاء ، مجرى القوافل ورحيلها ، خروج الإبناء للعمل فى المدن  
القريبة أو البعيدة ، كى يعودوا - بعد سنوات - بشيء من المال ،  
أو لا يعودوا أبدا ، حتى جاء الغرياء ، وهددت فوق الأرض الساكنة  
تلك الآلات الرهيبة ، باناة وهدوء وتعمق ، يقدم الروائى عشرات  
الشخصيات والأحداث والتفاصيل ، ترسم كلها صورة مجتمع قديم  
أصيل تتخلل قواعده ، ثم يتقوض ، وعلى انقاضه يقوم واقع  
جديد .

ينتهى الجزء الأول « التيه » ١٩٨٤ ، وقد امتد خط أنابيب النفط  
من « وادى العيون » حيث الآبار ، الى « حران » حيث المصفاى  
وميناء التصدير ، وبعد أن انتهت أول انتفاضة قام بها العمال وأهل  
حران ضد الشركة الأمريكية وسلطة الإمارة المتواطئة ، نتيجة شروط  
العمل القاسية ، والاذلال والمهانة التى يلقاها العرب من الأمريكين  
رجال الإمارة . وينتهى الجزء الثانى « الأخدود » ١٩٨٥ ، وقد تأسست  
الدولة وقامت فى « موران » بأجهزتها وجيشها وأدوات قمعها وإعلامها  
وبعد أن وقع أول « انقلاب سياسى » وتمثل فى عزل السلطان خرمل  
وتولية أخيه الأمير فخر سلطانا للبلاد .

ولا يزال عبد الرحمن منيف عاكفا فى منفاه الاختيارى : باريس  
على إكمال الجزء الثالث والآخر من مدن الملح « تقاسيم الليل  
والنهار » والذى يصفه بأنه سيكون « رحلة مفتوحة فى الزمان والمكان  
.. أو هو التفكير بصوت عال فى هموم الحاضر ، لاجتناب مصاعب  
المستقبل » .



و « النهايات » ١٩٧٧ ، هى رواية البادية بامتياز ، شهادة بدوى



يعرف الصحرَاء والمواسم والخصب والمطر والجفاف والقحط والحيوان والطيء ، يتشم رائحة الفيم ويتعرف على نذر الماصفة ، ويعيش مع اهل قريته - هى دائما ذات القرية التى تقع على حافة الصحراء - متمثلا اتمالها الثقافية واصفى قيمها . ويتفرد «عساف» كنموذج بدوى للصيد : هو اعرف اهل القرية بمواسم الصيد واماكنه وطرائقه ووسائله ، لكن الاعم ان يعرف وظيفته ودوره فى الابقاء على حياة الجماعة حين يهددها القحط والجوع . مرة واحدة انفجر فى اهل الطيبة ، وقال فى وجوههم ماكان يجب ان يقال : « قلت لكم الف مرة .. لم يبق بيننا وبين الموت الا ذراع ، وهذه الذراع هى الصيد الذى نستطيع ان نوفره حتى تاتى الامطار مرة اخرى .. قلت لكم مئات المرات وانتم لا تسمعون هذا الكلام .. وبدل ذلك تزدادون حماة يوما بعد يوم .. » ، وقال لهم ايضا : « لم يخلق الصيد للاغنياء او للذين يقتلهم الزهق والشبع .. لقد خلق للفقراء ، وللذين لا يملكون خبز يومهم .. وعساف الذى قضى حياته كلها فى البرية لا يصيد فى مواسم الخير الا ما يملأ معدته .. اما فى مواسم الجفاف ، ولكى لا يموت الناس فى الشوارع فيمكن ان يكون الصيد حلا .. »

لكن هذه الكلمات ، غاضبة الصدق ، لم تكن سامعياها عن التلهى بالصيد ، فخرج عساف معهم .. ليموت دونهم .  
اما السهرة التى قضاها اهل الطيبة ، وجثة عساف مسجاة بينهم ، فقد جاءت حكاياتها كلها تنويعات وتفريعات على العلاقة بين الانسان والحيوان والطيء ، وهى - من الناحية الاخرى - تنويعات على لحن النهاية : نهاية البشر والحيوانات .. حتى الاشجار . ولان عساف كان - كما يصف المختار الذى احس ، اكثر من قيره ، دلالة حياته وموته .. « عساف الحصان ، الفيمة ، ابو الفقراء ، الذى لا ينام ساعة فى الليل من اجل ان تعيش الطيبة وتبقى .. » .. بكلمات اخرى : لانه كان الفرد الذى يمثّل افضل قيم الجماعة ، ويتقدم - ساعة الخطر - ليفديها ، فقد خرجت الطيبة كلها فى وداعه ، حتى النساء : « تجمعت النسوة على شكل دائرة ، وبطريقة تختلط فيها كل مظاهر الحزن والفرح واللذة والجنون والغضب ، وبحركات ادائية لا يتقنها الا من احترفها لفرط ماعود عليها ، بدأت الرقصة

منتظمة موزونة ، وكانت الصرخات ترافقها وتعطيها انتظاما أدق  
ووزنا أوضح . . . »

ليس هذا فقط ، بل أن موت عساف جاء انبثاقا لصحوة أهل  
الطبيعة ، ولأن يفعلوا شيئا بدل انتظار الموت : سيمضون مباشرة الى  
المدنية ، كي يطالبوا بإنشاء السد الذي يعنى الحياة لقريتهم ، والا ،  
يقول المختار : « ان اعود الى الطبيعة مرة اخرى ألا احمل بندقية  
وأبقى في الجبل ، ومن هناك ، ومع الآخرين سوف نعمل شيئا كثيرا  
غير الصيد . . »

وثمة صلات قريبي بين عساف وآخرين من أبطال عبد الرحمن منيف  
لغة صلة بينه وبين الياس نخلة عاشق « الأشجار » ، كان الياس  
يوما يمتلك أشجارا ، لكنه في ليلة قامر عليها فخسرها ، وتلك لغته  
الحقيقية : قامر بالطبيعة التي لا يمتلكها أحد ، وحين اقتلعت الأشجار  
من قريته أحس بأن جلدوره قد اقتلعت معها ، كانت الأشجار في  
عالمه تعنى الخصب والسماء ، مياه الآبار وزخات المطر ، الظل  
والتجدد ، الأطفال والإمهات والنساء والشجر . وماذا يفعل من أضاع  
أشجاره في هجير قريته الصغيرة « كان اسمها الطبيعة كذلك » ؟ . .  
ضياعا بضياح ، خرج الياس الى المدينة الكبيرة يضيع فيها .

وثمة صلة أخرى بينه وبين مفضي الجوعان : واحد من أكثر  
شخصيات « التيه » استدارة واكتمالا ونفاذا الى القلب ، مثله كان  
مفضي الفرد - النموذج ، ومثله كان « أبا اليتامى » وملبى الحاجات  
ومثله أيضا كان « يقتفى اثر الأرناب والوعول » ويرجع ، أغلب  
الاحيان ، بحصيلة يعجب الكثيرون كيف تمكن من جمعها ، وهذه  
الحصيلة يوزعها بنفس طيبة ، حتى ان كثيرا ما يبقى صفر اليدين ،  
ولا يذوق شيئا مما جمعه بنفسه . . » ، ومثله أيضا قال الكلمات  
التي يجب أن تقال ، وقدم حياته ذاتها تدليلا على صدق كلماته ،  
ومثله أخيرا : احتضنت الجماعة ابنها الذي من قلبها خرج ، وأصبح  
رمزا لأصفي قيمها وممارساتها ، وأعادته الى قلبها من جديد ،  
لينحول الى أسطورة حية رائعة .

وعلى مستوى آخر يلتقى عساف مع الفكرة الرئيسة التي ربما  
كانت الدافع وراء تخطيط مشروع « مدن الملح » : فأهل هذه  
المدن ، مثل أهل الطبيعة ، لم يستطيعوا التوازن مع الطبيعة ،



ومصادرها والتعامل معها واحترام قوانينها ، هذا ما فعله - ويفعله -  
أهل « مدن الملح » بالنفط ، وهذا ما فعله أهل الطبقة بالطير  
والحيوان .

في رسالة خاصة كتب عبد الرحمن منيف عن القاهرة ، المدينة  
« التي أحبها بجموح » . والتي كانت نقطة انطلاقه للعالم الواسع  
بعد أن قضى فيها عامين مثقلين بالاحداث ، في تاريخه وتاريخ  
المدينة : ١٩٥٦-١٩٥٧ .

و « النهايات » العمل الاول الذي يصدر للروائي العربي الكبير  
من المدينة التي أحبها بجموح .

**فلوق عبد القادر**

انه القحط .

القحط .. مرة أخرى !

وفي مواسم القحط تتغير الحياة والاشياء .. حتى البشر يتغيرون .. وطباعهم تتغير ، تتولد في النفوس أحزان تبدو غامضة أول الامر ، لكن لحظات الغضب ، التي كثيرا ما تتكرر ، تفجرها بسرعة ، تجعلها معادية ، جموحا ، ويمكن أن تأخذ أشكالا لا حصر لها ، أما اذا مرت الغيوم عالية سريعة ، فحينئذ ترتفع الوجوه الى أعلى وقد امتلأت بنظرات الحقد والشتائم والتحدى !

... وحين يجيء القحط لا يترك بيتا دون أن يدخله ، ولا يترك انسانا الا ويخلف في قلبه أو في جسده أثرا . واذا كان المسنون قد تعودوا ، منذ فترة طويلة ، لفرط ما مر بهم من أيام قاسية ، على سنوات المحل وعضة الجوع ، وكانت المخاوف تملأ قلوبهم حين يفكرون فيها ، فالكثيرون غيرهم لا يقدرّون على مواجهتها بالتصميم نفسه ، لان الكميات القليلة من الحبوب التي توضع جانبا ، باصرار قوى أول الامر ، لتكون زادا في أيام الجوع ، لا تلبث أن تتسرب أو تختفي ، كما يتسرب ماء النبع أو كما يجف المجرى ، وتبدأ بعد ذلك محاولات البحث المضمنى عن خبز اليوم ، وخلال هذا البحث تتراكم الاحزان والمخاوف لتصبح شبحا مرعبا تظهر آثاره في وجوه الصغار ، وفي مسهموم الرجال وشتائمهم ، وفي الدموع الصغيرة التي تتساقط من عيون النسوة دون أسباب واضحة .

... انه القحط مرة أخرى ، وها هو يسوق أمامه أشياء لا حصر لها ولا يعرف أحد كيف تتجمع هذه الاشياء وكيف تأتي ، فالفلاحون الذين كانوا يحملون صلال البيض وينزلون بها الى أطراف المدينة ، ويتجرعون بعض الاحيان ويصلون الى وسط الاسواق المليئة بالبشر ، والرعاة الذين كانوا يأخذون أجر سعة كاملة بضمعة خراف ، وكانوا يسوقونها في بداية فصل الربيع ، ومعها الحملان الصغيرة ، وكانوا يضعونها على صدورهم لانها ولدت لتوها ، لكن يبيعوها في المدينة ، ثم أولئك الباعة الماكرون الذين يحملون على دوابهم العنب والتين والتفاح ،



ويحملون موازينهم البدائية ومعها قطع الحجارة المصقولة التي تعودوا استعمالها أوزانا ، ويبالغون أول الامر في الاسعار التي يطلبونها . . . ان كل هؤلاء اذا جاءوا في مواسم القحط يجيئون بهيئات مختلفة شديدة الغرابة : كانت ملابسهم ممزقة وغريبة الالوان ، وعيونهم مليئة بالحزن والخوف ، أما أصواتهم القوية الصاخبة فكانت تنزلق الى الداخل ، وبدلاً منها تخرج من الصدور أصوات غير واضحة ، حتى انهم كانوا يضطرون الى اعادة ما يقولون بضع مرات ، بناء على الاسئلة اللفظة التي يوجهها لهم أصحاب الدكاكين في المدينة ، والذين لم يكونوا ينظرون الى وجوه هؤلاء الناس قدر ما ينظرون الى الايدي أو الى تلك الصرر الصغيرة المربوطة بأحكام في أطراف الملابس التي يضعونها على أجسادهم أو على رؤوسهم . وكان هؤلاء اذا جاءوا في مثل هذه السنين لا يبيعون البيض والفاكهة والزيتون والخراف ، وإنما يحاولون شراء أقصى ما تسمح به نقودهم القليلة من الدقيق والسكر . حتى الرعاة الذين كانوا شديدي النزق ويبالغون في المقابل الذي يطالبون به ثمناً للخراف ، كانوا يفضلون العودة مرة أخرى ومعهم دوابهم ، دون شعور بالاسف لانهم لم يبيعوا ولم يشتروا - حتى هؤلاء يتحولون في مثل هذه السنة الى رجال مترددين متوسلين ، لانهم يريدون التخلص من الدواب الضعيفة المسنة ، اذ أصبحوا يخافون خوفاً حقيقياً أن تموت بين لحظة وأخرى من الجوع والعطش .

أما الباعة الذين تعودوا المجيء في كل المواسم ، حاملين من كل موسم ثماره ، وبعض الأحيان للتجول والفرجة ، فلم يعد أحد يراهم يحملون شيئاً في هذه المواسم ، وكأنهم مجموعة من القناقل تكورت وهربت أشيائها الى باطن الارض !

لو اقتصر الامر على هذه المظاهر لما أثار استغراباً ، لان العلاقة بين المدينة وما يحيط بها هي من القوة والاستمرار بحيث لا يمكن لأحد أن يميز بسرعة التغير المفاجيء الذي أخذ يتكون ، لكن مع تلك المظاهر كانت أشياء أخرى كثيرة تحصل : فالتجار الذين تعودوا على تقديم القروض الصغيرة للفلاحين ، واستيفائها أضعافاً مضاعفة في المواسم ، اتخذوا موقفاً ، بدأ أول الامر ، مليئاً بالشروط والتعنت ، ثم ما لبثوا أن امتنعوا تماماً ، وافتعلوا لذلك أسباباً وخصومات . أما الذين استمروا في تقديم بعض المساعدات ، فقد رفضوا أن يكون سدادها في المواسم القادمة ، وأصرروا على شروط جديدة : أصرروا على أن تسجل أقسام كبيرة من الاراضي التي يمتلكها الفلاحون بأسمائهم وأسماء

ابنائهم . وفي محاولات لاثبات حسن النية قالوا الكلمات التي يقولها الدائنون دائما : « الدنيا حياة وموت ، والانسان لا يضمّن نفسه في اليوم الذي يعيش فيه ، فكيف يضمّن حياة اولاده الصغار بعد موته ؟ » كانوا لا يكتفون بذلك ، كانوا يضيفون : وكما قال الله عز وجل في كتابه الكريم : « اذا تدايتم بدين الى اجل مسمى فاكتبوه وليكتب بينكم كاتب بالعدل » .

والفلاحون الذين قابلوا اصرار هؤلاء الدائنين باصرار أقوى ، ورفضوا تسجيل الاراضي ، أول الامر ، اضطر الكثير منهم الى استئجار الحلّ الذهبية والفضية القديمة ، والتي جمعت خلال فترات طويلة سابقة ، وقدموها عوضا عن الطحين والسكر وبعض امتار من الخام . وفي وقت آخر وافق بعضهم على التنازل وقدم الاراضي والبساتين التي طلبها الدائنون ، ومع كل صفقة جديدة كانت اثمان الارض في القرى تتراجع ، وكان التجار يزدادون تصلبا ولا يوافقون الا بشروطهم ، وبعد أن تتم جميع الاجراءات :

ومع القحط تأتي اشياء أخرى أيضا : تأتي الامراض الغامضة وتعقبها الوفيات . كان الكبار يموتون من الحزن ، والصغار تنتفخ بطونهم وتصيبهم الصفراء ثم يتساقطون . واذا كان الناس قد تعودوا على الموت ، ولم يعد يخيفهم كما كان الامر في اوقات أخرى ، رغم انه يتسبب كل الاوقات في تفجير آلاف الاحزان والاحقاد القديمة ، فان حالة اقرب الى الانتظار اليأس كانت تحوم فوق كل بيت وتسبح في دم كل مخلوق . حتى الدواب في حواكير البيوت ، أو في اطراف البساتين كانت تسيطر عليها حالة من العصبية والياس .

وفي هذى السنين ، ومع الجوع والموت ، تأتي افواج لا حصر لها من الطيور ، ومثلما كانت الغيوم الخفيفة العالية تمر بسرعة ، كذلك كانت الطيور ، فقد كانت افواجها تعبر في كل الاوقات ، حتى في الليل العميق ، عالية صائتة ، وكأنها ذاهبة الى الموت أو الى مجهول لا تعرف متى أو أين سيكون .

كان الناس ينظرون الى الطيور نظرة مليئة بالحزن والاسى . تمنوا لو كانت قريبة ، أو لو تتوقف قليلا ، لعلهم يظفرون بعدد منها يعوضهم عن الجوع الذي يهددهم ، لكن الطيور تواصل طيرانها المتعب لعلها تصل الى مكان ما ، والناس لا يتوقعون عن النظر والحسرة ، ويتوقعون شيئا ما ، ولكن هذا الشيء لا يحصل أبدا ، لان اسراب الكركي والوز البري ، وعشرات الاسراب من الطيور الاخرى واصلت رحلتها المجهدة ،



دون توقف . أما أسراب القطا والكسرى فقد بدأت تظهر بين فترة وأخرى . والفلاحون الذين تعلموا ان هذا النوع من الطيور لا يترك أماكنه الصحراوية ، ويقترب من المناطق المزروعة ، إلا إذا عشه الجوع وأضناه العطش ، ولم تعد واحات الصحراء أو الخوابي المتناثرة في أماكن عديدة تخوى قطرة ماء ، فقد لاحظوا ان هذه الطيور بدأت تتخل عن الحذر والخوف ، أول الامر ، مدفوعة بغريزة البقاء ، فتندفع الى أى مكان عليها تلتقط بضع حبات أو قطرات من الماء .

إنها المأساة نفسها تتكرر مرة أخرى أمام عيون الفلاحين ، وهم قد تعودوا الصبر والانتظار ، وتعودوا أكثر من ذلك أن يبدوا التشاؤم والتحفظ ، وكانوا يرددون إذا سئلوا عن المواسم والزراعة : « المواسم لا تعنى الأمطار التى تأتى فقط ، وإنما أشمسياه أخرى كثيرة » . فإذا حصلت لاجابة فى السؤال كانوا يختصرون كل شيء بالثلثات التالية : « المواسم تعنى ما يقسمه الله وما يتركه الطير » ، لأنهم فى أعماقهم يخافون كل شيء ، يخافون انحباس المطر فى الشهور التى يجب أن يسقط فيها ، أما إذا جاء مبكرا ونما الزرع وارتفع شبرا أو شبرين عن الأرض ، فكانوا يخافون أن يأتى مطر غزير بعد ذلك الانقطاع ، وعندها تفرق الأرض وتنمو الأعشاب الطفيلية ويفسد كل شيء . فإذا جاء المطر هينا متفرقا ، وفى الاوقات التى يجب أن يأتى فيها ، فإن الخوف يظل حتى الأيام الأخيرة من ايار ، حين تشتد الحرارة فجأة وتحرق كل شيء ، فتخيب الآمال وتراجع الوعود التى أعطاها الرجال للنساء بأثواب جديدة وللفتيان الذين تجاوزوا سن البلوغ وأصبحوا يطمحون الى الزواج ان جاءت المواسم الجديدة بالخير ، ان هذه الوعود تتراجع يوما بعد آخر لأن « الشوبة » جاءت وقضت على كل شيء !

ان أحدا لا يحب أن يتذكر أيام القحط ، أما إذا جاءت قاسية جارفة ، وإذا تكرر مجيئها سنة بعد أخرى ، فالكثيرون يفضلون الموت أو القتل ثم الرحيل على هذا الانتظار القاسى ، وآخرون يندفعون الى حالة من القسوة والانتقام لا يتصورها أحد فيهم ، بل ويستغربها هؤلاء الناس أنفسهم فى غير هذه الاوقات ، وفى غير هذه الظروف . وإذا كان الانسان لا يستطيع أن ينتقم من الغيوم أو ممن يرسلها ، فلا بد أن تكون هناك ضحايا من نوع آخر . فالأزواج الذين ابدوا من التسامح الشيء الكثير ، ولم يتعودوا الشتيمة أو الضرب ، كانوا مستعدين لان يغيروا هذه العادات بسهولة ودون شعور بالذنب ، كانوا لا يترددون فى أن يضربوا ويصرخوا لاتفه الأسباب . والذين كانوا يبدون المرح ويظهرون التفاؤل ،

يتحولون فجأة الى رجال قساة بوجوههم وتصرفاتهم ، وحتى أولئك الذين كانوا شديدي الايمان ويعتبرون كل ما تأتي به السماء امتحانا للانسان لا يلبثون أن يصبحوا ضحايا واكثر الناس شتيمة وتجديفا ، حتى ليستغرب من عرفهم من قبل كيف كان هؤلاء الناس يخسرون في صدورهم هذا المقدار الهائل من الشتائم والافكار الخاطئة المحرمة !

هكذا كان القسم الاكبر من الناس في تلك السنة القاسية الطويلة ، واذا كان لكل قرية ولكل مدينة في هذا العالم ملامحها وطريقتها في الحياة ، ولها اسمائها ومقابرها ، واذا كان لكل قرية ومدينة مخاتيرها ومجانينها ، ولها نهريها أو نبع الماء الذي تستقي منه ، وفيها مواسم الاعراس بعد الحصاد ، فقد كان للطيبة أيضا حياتها وطريقتها في المعاش ، وكان لها مقبرتها وأعراسها ، وكان في الطيبة مجانينها أيضا ، لكن هؤلاء المجانين لا يظهرون دائما ولا يتذكركم الناس في كل الاوقات ، وان كان لهم حضورهم وجنونهم الخاص ، بحيث كانوا كبارا واقوياء في اوقات معينة ، وكانوا حمقى وشديدي الغرابة في اوقات أخرى .

وكان للطيبة دائما أعراسها وأحزانها . كانت الاعراس ، أغلب الاحيان ، بعد الحصاد ، وكانت الاحزان حين ينقطع المطر وتمحل الارض . واذا كانت الاعراس تعنى بعض الناس ، ولبعض الوقت ، فإن الاحزان ، وفي سنوات المحل ، تعنى جميع الناس . وتمتد فترة طويلة .



الطيبة ، مثل أى مكان فى الدنيا ، لها اشياؤها التى تفخر بها ، قد لا تبدو هذه الاشياء خطيرة ، أو ذات أهمية بالنسبة لاماكن أخرى ، لكنها بالنسبة للطيبة جزء من الملامح التى تميزها عن غيرها من الضياع والقرى . وهذه الاشياء تكونت بفعل الزمن ، وبفعل الطبيعة القاسية ، كما لم يحصل فى اماكن أخرى . فإذا كانت الاصوات العالية تميز سكان عدد كبير من القرى ، حتى لتبدو أصوات الفلاحين عالية الجرس صلبة المخارج ، وبعض الاحيان سريعة ، وتتخللها مجموعة من الحكم والامثال كما هى العادة لدى الكثير من الفلاحين فى أنحاء عديدة من العالم ، نظرا للعادة والمسافات التى تفصل الناس عن بعضهم فى الحقول ، أو حين يضطرون للمناداة على الحيوانات الضالة ، أو على تلك التى تذهب بمزاجها الغريب الى اماكن بعيدة أو مجهولة ، أو ربما للبعد الذى يفصل البيوت عن بعضها ، وما يحيط بها من الحواكير والبساتين الصغيرة التى تزرع فيها أنواع عديدة من الخضروات . . ان هذه الاسباب ، وغيرها كثير ، خلقت طبيعة معينة ، وجعلت الناس فى الطيبة يتكلمون بطريقة خاصة ، حتى ليظن من يسمع الحديث ولا يفهم طبيعة الناس أو علاقاتهم ، انهم يتعاركون ، أو ان الخلاف بينهم وصل الى درجة من الحدة ، لا بد أن تعقبه أمور أخرى !

لو اقتصر الامر فى الطيبة على ذلك لما عنى شيئا ، خاصة بالنسبة للفلاحين أو الذين يعرفون طبائعهم ، لكن اذا ترافق مع ذلك النسق الخاص من الحديث الذى تعود به أهل الطيبة ، حيث يلجئون فى أكثر الاحيان الى الاستطراد والتذكر ، ويسرفون فى رواية القصص والتاريخ ، لولا هذه الصفة لما ظهرت تلك الطبيعة الخاصة ، ولما ظهرت تلك الخشبة التى تميز البشر فى ذلك المكان ، وما يحيط به من قرى وضياع ، وقد تصل الى المدينة ، أو بعض أطرافها أيضا .

كان أهل الطيبة يعرفون كيف يديرون الحديث بتلك الطريقة العجيبة التى تجعل الامور ذات أهمية شديدة ، وهذه الميزة التى يتوارثها الابناء عن الآباء ، تجعلهم فى نظر الكثيرين نوعا خاصا من الناس ، وتجعلهم أكثر من ذلك قادرين على التأثير فى الآخرين . . . وربما اقناعهم . ولا

يمكن تفسير هذا الامر على انه ضرب من الاحتيال أو التملق ، كما لا يمكن أن يعتبر دليلا على نزعة شريفة ، ولكنها العادة بتكرارها الدائم ، ثم تلك الليالى الطويلة ، ليالى السمر والاحاديث السائبة ، ثم التحديات ، وما تجر اليه ، وليالى الصيف أو الشتاء ، فى البيادر أو الى جانب النبع ، وحول المواقد . لقد كانت تجرى الاحاديث سريعة شسجية واقرب ما تكون الى الحلم . وكان الذين لا يحسنون المشاركة فى احاديث من هذا النوع ، لا يلبثون أن يصسبحوا بشرا مختلفين اذا وجدوا بين اناس آخرين ، عندئذ يبدعون باعادة ما سمعوا ويرددون القصص التى رويت فى الطيبة ، ثم يضيفون اليها ما شاءوا من الخيال ، فتبدو وكأنها اقرب الى الذكاء والمهارة فتثير من الاعجاب بمقدار ما تثير من الحسد . وابن الطيبة ، كبيرا كان أم صغيرا ، يعرف كيف يسمع ، وان كان الصغار ، بشكل خاص ، أكثر قدرة على الاصغاء ، ولربما رددوا فيما بينهم أو فى أنفسهم ، ما سمعوا مرات كثيرة ، حتى تترسخ فى الذاكرة الاشياء فلا تضيع ولا تنسى ، يضاف اليها أفكار وأمثال ترد عفو اللحظة وتمليها الظروف الطارئة التى يواجهونها . انهم يلجئون الى ذلك كله لكن تبدو احاديثهم أكثر تشويقا وأكثر أهمية !

والطيبة التى تعتمد على المطر والزراعة ، وعلى ذلك الشريط الضيق من الارض الذى ترويه العين ، تحس فى أعماقها خوفا دائما أن تأتى سنوات المحل ، واذا كانت تستعد لذلك بحرص شديد ، بتربية بقرة أو اثنتين فى كل بيت ، وبتربية عدد من رءوس الغنم ، فانهافى سنوات المحل لا تستطيع أن تطعم ابناءها ، ولذلك تسرف فيما تعطى للرعاة ، وتحاول أن تتخلص من الدواب الباقية بذبحها أو بيعها . ورغم ان عدد الرعاة فى الطيبة أقل بكثير من القرى الاخرى ، فان رعاتها من البراعة بحيث يحسدوهم الكثيرون ، فالراعى الذى يسرح بغنم عشرة بيوت ، ويعرف كيف يتصرف فى كل الفصول ، والى أين يذهب . . هذا الراعى ، رغم غيابه الطويل فى الفلاة ، يظهر فجأة فى سنوات المحل ، ويمتلك دالة على أصحاب الغنم السابقين ، بحيث ينام ويقوم فى أى بيت يريد دون شعور بالحرج أو التردد . أما المزايا الخفية التى يمتلكها الرعاة ولا تظهر للناس فى المواسم الجيدة فلا تلبث أن تظهر فى سنوات القحط ، فهم يرابطون فى مداخل القرية ، ويتحسول قسم منهم الى الصيد ، لكن العادات التى اكتسبوها فى الرعى لا تفارقهم . وأهل الطيبة الذين يمتازون بقدرة خارقة على الحديث ، يدركون ان الرعاة فقدوا هذه الميزة لكثرة ما عاشوا مع الحيوانات فى البرارى ، لكنهم يعرفون كيف



يستطيع هؤلاء أن يتجاوزوا الصمت بتلك الاغاني العجيبة التي يرددونها في الفلاة . ويعرفون أيضاً كيف يستعملون تلك الآلات الخشبية ، والتي لا يحسن استعمالها غيرهم ، في مواسم الاعراس والحفلات . . وربما في حالات الحزن أيضاً .

بهذه الطريقة ، وبمعرفة الأماكن التي تعيش فيها الحيوانات ، يصبح الرعاة في مواسم الجفاف أناساً لا غنى عنهم ، لكنهم أغلب الأحيان لا يتقنون الصيد . وليست بيدهم وبين الصيادين مودة . فهم لا يتخلون عن الغناء أو عن تلك الآلات الشيطانية ، كما يحب المسنون أن يسموها ، ويحتالون كثيراً من أجل إبداء براعتهم في كل الاوقات ، خاصة اذا تجمع الناس ، وكانت هناك ضرورة من نوع ما !

الطيبة بداية الصحراء : من ناحية الشرق البساتين والنبع والسوق بعد ذلك ، وعند الافق ، تبدأ سلسلة الجبال ، ومن ناحية الشمال والغرب تمتد سهول فسيحة ، يتخللها بين مسافة واخسرى بعض الهضاب ، وهذه السهول تزرع بأنواع كثيرة من الحبوب . كانت تزرع بالحنطة والشعير والكرمنة والبرسيم وبعض أصناف البقول ، وفي الأماكن القريبة من البلدة ترتفع مساكن الخضرة ، قريبا من الأشجار المثمرة . أما من ناحية الجنوب فكانت الأرض تشعب تدريجيا ، وتخالطها الحجارة الكلسية ، وتبدأ تفقر ذراعا بعد آخر حتى تتحول في بداية الافق الى كثبان رملية ، وبعد ذلك تبدأ الصحراء .

في المواسم الجديدة تحضر الطيبة وتعبق من كل جهاتها ، وتتلو بالورود والنباتات العجيبة الالوان والاشكال في بداية الربيع ، حتى الجهة الجنوبية التي تدير أواخر الصيف متجهة قاسية ، لا يعرف الانسان ولا يستطيع أن يفسر كيف كانت قادرة على أن تقلد من جوفها كل هذه الكنوز ، وكيف كانت تشد أهل الطيبة في بداية الربيع لكي يذهبوا أفراجا لالتقاط الثمار العجيبة المخبسة في بطن الأرض ، وما يخالف ذلك المهرجان من الذكريات عن أيام كانت فيها الحياة أكثر روعة وخصبا . ان هذه البلدة تتصف بمزايا وصفات ليست متاحة لكثير من القرى المجاورة . حتى الرعاة الاغراب الذين كانوا يحلمون بالوصول الى المراعى الخصبة ، لا يجرون على الاقتراب كثيرا من مراعى الطيبة ، ولا يتجاوزون حدا معينا ، لانهم يعرفون طباع أهل الطيبة وما يتصفون به من حدة ، وما قد يرتكبونه من حماقات ان اعتدى غريب على رزقهم أو حياتهم .

هذه الامور يعرفها ويتصف بها كل من عاش في الطيبة ، ويعبرها أيضا الذين عاشروا أهلها . وإذا كانت بعض القرى قادرة على أن تقلد من جوفها أبناء كثيرين ، وترميهم في انحاء الأرض كلها ، وتفقد بعد ذلك كل صلة بهم ، فان الطيبة تختلف كثيرا ، لانها تولد في نفوس أبنائها حنيناً من نوع لا ينسى ، وحتى الذين صافروا وابتعدوا كثيرا ، كانوا يرددون دون انقطاع اسم الطيبة ، ويحنون الى أيامها الماضية ،



ويتمنون لو عادوا اليها ذات يوم ليعيشوا ما تبقى لهم من العمر .  
والذين لا يذهب بهم التفكير والخيال هذا المذهب ، كانوا ينفكرون  
بالعودة اليها بين فترة واخرى ، وهناك يقضون اياما جميلة ، ويتذكرون  
كل ما حصل في سنوات سابقة ، ويمرون على كل البيوت ، ويجلسون  
في مقهى السوق ومقهى النبع ، ويعبون الهواء بقوة وشهوة لعله يمنحهم  
قوة تمكنهم من مواجهة الايام المقبلة والاستمرار في الحياة الجديدة التي  
بدأوا يحيونها في أماكن أخرى .

واذا كان الناس يفضلون ، في بعض الاوقات ، تذكر الايام الجميلة  
من الماضي ، فان الايام القاسية يصبح لها جمال من نوع خاص ، حتى  
الصعوبات التي عاشوها تتحول في الذاكرة الى بطولة غامضة ولا  
يصدقون انهم احتملوا ذلك كله واستمروا بعد ذلك .

هذا الوفاء الذي يكنه أهل الطيبة لبلدتهم لا يقتصر على شيء دون  
غيره ، ولا يقتصر على المقيمين وحدهم ، فالذين مسافروا طلبا للرزق  
أو الدراسة ، وعاشوا في أماكن بعيدة ، لا يكتفون بان يرسلوا الطحين  
والسكر والرسائل وبعض الحاجات الاخرى الى البلدة ، انهم يأتون  
لقضاء وقت غير قصير في الطيبة أيضا ، خاصة بعد ان يعجزوا عن اقناع  
أقربائهم بالسفر اليهم .

صحيح ان هذه الفترات التي يقضونها في الطيبة تسبب لهم ألما  
عميقا ، وتولد في النفوس أحزانا لا يعرفون كيف يكتُمونها ، خاصة حين  
يرون المياه وهي تشح وتكاد تنقطع من النبع ، ويرون المجرى وقد جف ،  
ثم يملكهم شعور بالاختناق حين يسمعون أصوات الفئوس وهي تهوى  
على الاشجار الجافة ، فاذا اضيفت الى ذلك أخبار الذين رحلوا ونُحِبَّتْهم  
الارض من الاصدقاء والاقرباء ، الصغار والكبار ، فان الحزن يتحول  
الى حالة عصبية ، يأخذ الحديث مجرى جديدا . ويبدأ القادمون ، رغم  
صغر سنهم ، يلومون الكبار ، ويوجهون لهم كلمات التقرير :

ـ قلنا لكم مئات المرات : هذه الارض لا تقطع حتى الحرذان وانتم  
.. هنا ، تتشبثون بها ، وكأنها الجنة اتركوها . ارحلوا الى المدينة .  
هناك يمكن أن تجدوا حياة أفضل من هذه الحياة التي تعيشونها  
الف مرة !

وحين يضمّت المقيمون ، خاصة من المسنين ، ويتطلعون بحزن الى  
وجوه الذين يتكلمون ، يتراءى لهم ، للحظات ، انهم لم يروا هذه  
الوجوه ، ولم يعرفوها من قبل . ويتراءى لهم في لحظات أخرى أن  
الكلمات التي يسمعونها قالها أناس غيرهم ، أو ان المدينة افسدتهم تماما

وجعلتهم يتكلمون مثل هذا الكلام . وتمتد في أذهان المسنين صور لا نهاية لها : صور الطيبة في كل الفترات ، حين كان ينبت العشب على الصخور وعلى أسطح المنازل ، وحين كانت الينابيع تتفجر من كل مكان ، كانوا يتذكرون ذلك ويعبون أنفاسا عميقة وكأنهم يتنفسون رائحة الخصوبة تتولد من كل الكائنات ، ليس من البشر وحدهم ، وإنما من الحيوانات والجماد . يتذكرون كل شيء ، ويتذكرون أكثر مضاف الاطعمة التي كانوا يأكلونها فيتحرك اللعاب في أفواههم !

ورغم ان الابناء الذين هجروا الطيبة منذ وقت طويل ، واستقروا في المدينة البعيدة ، لا يعنون ما يقولونه تماما ، أو لا يقصدون اليه ، فان تلك الصعوبات التي كثيرا ما تتكرر ، تحملهم على أن يقولوا كل شيء ، وتحملهم أكثر على أن يفكروا بهذه الطريقة . ومع ذلك ، وبالرغم منه ، فان هؤلاء في مواطنهم الجديدة لا يكفون عن ذكر الطيبة ، والحديث عن مزايا موهومة لا تتمتع بها أية بلدة أخرى في المنطقة كلها . كان هؤلاء الابناء لا يكتفون بالحديث ، فان تعلقهم بالطيبة يدفعهم في حالات كثيرة ، وفي لحظات الشوق المذكورة ، لان يفعلوا أشياء لا حصر لها ولا تخطر ببال : كانوا يقيمون أفراحهم في الطيبة ، يحددون هذه الافراح في الطيبة ، يبعثون ابنائهم خلال فصول الصيف ، لكي يعيشوا مثلما عاشوا حين كانوا صغارا . وحين تأخذهم الذنوة يدعون اصداقهم لقضاء بضعة أيام في هذه البقعة الرائعة : في الطيبة السماء قريبة . شديدة الصفاء ، والليالي هناك مليئة بنشوة لا تجدونها في أي مكان آخر من هذا العالم . أما الفواكه . أما الالبان ، كالجبنه حين تكون طازجة ، والزبدة حين تقطف ، الدجاج والخراف الصغيرة وهي تشوى على نار الحطب . . هذه الاشياء وأخرى غيرها في الطيبة ، لا يمكن أن يكون لها مثيل . ثم هناك الصيد . الصيد وفير ، فالحجل والارانب ، وحتى الحيوانات المتوحشة التي انقرضت في معظم البقاع ، يمكن ان توجد في بعض الودية العميقة المحيطة بالطيبة . والينابيع الغزيرة . ان الينابيع ، اذا كانت أمطار تلك السنة وفيرة ، تتفجر من شقوق الارض ، وتتدفق من تحت كل صخرة ، ومياه هذه الينابيع باردة نقية ، حتى ان الانسان لا يشبع حين يشرب من تلك المياه .

هكذا كانت تجري الاحاديث ، اما اذا جاءت فاكهة الطيبة الى المدينة ، في سلال صغيرة ، فكان هؤلاء الابناء لا يملون أبدا من تقديمها والنظر اليها ، كانوا يفضلون أن يقدموها الى ضيوفهم ، وان يتحدثوا عنها . اما اذا جرى الحديث عن أجبان المدينة والبانها ، فكثيرا ما كانت وجوه



هؤلاء الأبناء تتغير ، تمرق مثل ومضات خاطفة مظاهر القرف والذكرى  
فى وقت واحد ، ويتصورون للحظات انهم غير قادرين على أن يتلوقوا  
شيئا من الطعام غير ذاك الذى يأتى من الطيبة .

أشياء كثيرة تتولد فى النفوس ، فى نفوس المقيمين والراجلين ، وهذه  
الأشياء من التداخل والتعقيد بحيث لا يستطيع أحد أن يفسرها .  
صحيح ان الطيبة ، مثل أماكن أخرى كثيرة ، شحيحة الأرض ، قليلة  
المياه ، لكن فيها شيئا يجذب الانسان ويشده اليها شدا محكما . وإذا  
بدأ المسنون الحديث ، فى السهرات الطويلة خلال الصيف ، فانهم  
يتحدثون بلغة تروق كثيرا لهؤلاء الذين أتوا من المدينة : « قبل سنين  
كثيرة كانت الجبال المحيطة بالطيبة خضراء مثل البساتين ، لكن الاتراك  
وهم يبنون سكة الحديد ، ثم وهم يسبرون القطارات ، لم يتركوا شجرة  
الا وقطعوها . كانوا يريدون أخشابا ، ولا يهمهم من أين ، والأشجار  
التي لم يستطيعوا الوصول اليها ، التي كانت فى المعاصى وفى قمم  
الجبال ، أحرقوها وهم يرحلون . أما الجبال التي ترونها عارية الآن ،  
من المدينة البعيدة وحتى الطيبة ، فقد رأيناها خضراء حين كنا صغارا .  
كان الفارس يضيح فى الغابات الكثيفة التي تملأ السهول القريبة من  
الطيبة . »

مثل هذه الأحاديث توقد فى الأذهان صورا لا نهاية لها ، وأبناء  
الطيبة الذين سمعوها مرات كثيرة ، كان يروى لهم أن يدفعوا المسنين  
لاستعادتها مرات ومرات ، خاصة وهم يستقبلون ضيوفا من المدينة .  
كانوا يريدون ، بطريقة غامضة ، أن يثبتوا ميزة خاصة لبلدتهم ، وهذه  
الميزة ، وإن كانت لا تظهر بالوضوح الذى يشتهون فى الوقت الحاضر ،  
فإنها تكمن فى مكان ما ، ولا بد أن تظهر . ويضيفون بمكر وغشوش :  
« ليس هناك أفضل من أن يقضى الانسان أيامه الأخيرة فى هذه البلدة  
المباركة » وبالمكر نفسه يدفعون المسنين لأن يتحدثوا عن الأعمار . وهذا  
الحديث الذى يروق لبعض الرجال ، كان يزعج النساء ويدفعهن الى  
المقاطعة ، وبعض الأحيان الى الاستفزاز ، لكن لا يكاد الحديث يأخذ  
مجرى جديا مرة أخرى ، حتى يتحدث المسنون عن نقاوة الهواء وعذوبة  
الماء ، ويتحدثوا عن فوائد النوم المبكر واليقظة المبكرة ، ثم نوع الأكل  
الذى يأكلونه ، ويعززون الأمراض الجديدة والموت المبكر والمناسجى ،  
الذى يداهم المدينة ، الى مجموعة من الأسباب لم يألوها ولم يسمعوا بها  
من قبل .

وأحاديث السهر تبدأ دون منطق وبلا نظام ، وقد يتخللها بعض

الالعب البريئة ، وتلك الامور تجرى عفو اللحظة ، وبلا تخطيط سابق ،  
ومهما تشعبت وتباعدت ، ومثلما بدأت بالغابات والاشجار والينابيع ،  
فلا بد أن يجرى الحديث أيضا عن أيام القحط والصعوبات التي عاشتها  
الطيبة خلال تلك السنين . واذا كانت اللذة والايام الرائعة المليئة  
بالخصب تحرك المشاعر ، فان المصاعب التي عاشها البشر وتغلبوا عليها  
تحرك مشاعر أخرى ، مشاعر تزخر بالقوة وبمظمة من نوع خاص ، حتى  
ابناء الطيبة الذين سمعوا هذه الاحاديث مرات كثيرة ، يلد لهم أن  
يسمعوها من جديد ، وفي كل مرة تبدو لهم جديدة مليئة بالبطولة  
والعبر : « كنا ناكل الاعشاب وجذور النباتات .. كنا ناكل الجرابيع  
.. حتى الجراد الذي كثيرا ما كان يأتى فى سنوات المحل ، أو الذى  
يسبب المحل ، كنا نأكله . صحيح ان الحياة آنذاك كانت فى منتهى  
القسوة والصعوبة ، لكن الرجال فى تلك الايام كانوا رجالا ، كانوا  
أقوياء وقادرين على الاحتمال والصبر ، وكانوا قادرين على أن ياكلوا  
الصخر . اما رجال هذه الايام ، ويتسم بعض المسنين ، ويتذكر  
الآخرون ، وينظرون فى وجوه بعض ، وينظرون فى وجوه أبنائهم ، ثم  
فى وجوه الضيوف !



هذا جزء مما تعنيه الطيبة في ذاكرة ابنائها ، اما اذا جاء القحط فلا يبقى أحد من أهل الطيبة ، سواء كان يعيش فيها أو كان بعيدا عنها ، الا ويحس بمرض من نوع ما ، ولا يلبث هذا المرض أن يتحول الى هاجس ثم كابوس . وبرغم ان الابناء البعيدين لا يحتساجون الى من يعرضهم لكي يبعثوا أو يبعثوا الى البلدة بكل ما يستطيعون ، فان هذه المساعدات لا تقوى على مواجهة الكرب والوقوف في وجه المصائب التي تتوالى بسرعة . فحين يبدأ الشبح يتراخى والساقية تضمر ، ثم تجف في نهايتها ، يصبح المجرى مثل حية ماتت لتوها وبدأت تتخلي عن قشرتها ، وفي هذه الاوقات تبدأ الاشجار بالذبول ، ثم الجفاف . كانت اشجار المشمش أول الاشجار التي تموت ، ثم تبدأ بعد ذلك الاشجار الاخرى ، وتبور مواسم الجوز والزيتون ، وتصيب الطيبة كالحة قبيحة ويغلب عليها لون الصفرة . ومن ناحية الجنوب ، بدل القمع والكباء والحميض والانواع الكثيرة من الفطر ، تبدأ عواصف الرمال تهب لتغطي كل شيء ، وتخيم على سماء الطيبة موجة من الغبار الممرض ، وتتكاثر أفواج الذباب والغربان على الفطائس وعلى بقايا البراز ، وتتحول الاصسوات الى دوى مكتوم ينذر بشؤم ما . وفي هذي السنين لابد أن يموت عدد كبير من الناس ، ولابد أن تحصل أشياء لم يقدرها الكثيرون .

لا تقتصر هذه الحالة على البشر ، اذ تمتد الى الحيوانات والطيور ، فالحيوانات التي كانت تملأ منطقة شاسعة حول الطيبة وتسرح بلا مبالاة ورخاوة ، وتقتضي جزءا من زهاراتها في سكنة أقرب الى الدعة من الشبح والامتلاء ، لا تلبث أن تتحول الى حيوانات نزقة شديدة الجفلة كثيرة الحركة ، بحثا عن شيء تأكله ، ثم تتحول الى الشراسة والعناد ، فتبدو هائجة ويمكن أن تتصرف بجموح يصل الى درجة الاذى ، وأخيرا يضربها الهزال والمرض ، وفي هذه الحالة يتراكم أصحابها بمصيبة لكي يتخلصوا منها بالذبح أو البيع .

اما الطيور التي تعبر سماءات كثيرة متجهة الى حيث تجد رزقها ، فقد كانت تعبر سماء الطيبة بسرعة ودون أن تتوقف ، وكانها بغسريزة غامضة ، ومنذ آزمان موهلة في القدم ، وبتوارث فذ ، تعرف كيف

تتجاوز الطيبة والى أين تذهب . هذا تلك الطيور الصحراوية القاسية الملعونة ، فقد كانت تترك أماكن كثيرة فى هذا العالم وتتجه الى الطيبة أو قريبا منها ، وتبدأ من هنا معركتها الازلية مع البشر وبقيايا الحب وقطرات الماء .

وإذا كان لكل مدينة وبلدة وقرية جنونها ومجانيتها ، فإن جنسون الطيبة أنواع كثيرة ، لكن نوعا خاصا ، أكثر من غيره ، يظهر فى سنوات الجفاف . وهذا النوع يغطى على غيره ويكاد يكون الوحيد ، انه جنسون الصيد . حتى الذين لا يمارسون هذه الهواية ، وينظرون اليها نظرة تتراوح بين الزراية والرفض ، ويفسرونها على انها أقرب الى الغفلة ورغبة الكسل ، فانهم يكتشفون فجأة فى أنفسهم حنينا موجعا لان يصيحبوا صيادين بشكل ما . قد تدفعهم الى ذلك الرغبة لتأمين الرزق ، أو لطرد الطيور الجارحة والانتقام منها ، لعل بعض الحبوب تبقى وتنبت فى السنة التالية ، أو لعل تلك الحبوب تنفتح عن بعض أوراق خضراء تأكلها الحيوانات الجائعة ، وربما كان الدافع الى ذلك الرغبة فى الانتقام من عدو ما !

كان مجانين الطيبة فى هذه السنة أكثر عددا وأكثر مسخبا من أية سنة سابقة . حتى فى سنة المجاعة الكبيرة ، التى أعقبت الحرب ، لم يظهر مثل هذا العدد ، ولم تظهر مثل هذه الحالة . اذ ما كاد يبدأ موسم الصيد حتى أخرج هؤلاء المجانين البنادق القديمة من مخابئها ، مسحوا عنها الغبار ، نظفوها جيدا ، وبدأوا يضعون الخطط ويتحدثون . لم يكتفوا بذلك ، ابتدعوا وسائل صيد جديدة ، وتفطنوا فى تحضير الخرطوش واختراعه . ولكى ينتقم اولئك المجانين ، المصابون بهذا المرض منذ وقت طويل ، من أيام ماضية ، حين كانوا مسخريه أهل الطيبة ، لجأوا الى المكر والدهاء ، فلم يتركوا أحدا الا وأغروه بالصيد وأكدوا ان هذه الطريقة وحدها يمكن أن تنقذ البلدة ، ولكى ينجحوا فى لعبتهم حتى النهاية وزعوا على الكثيرين ، مجانا ، عددا من الخرطوش الذى يصنعونه بأيديهم وبوسائلهم البدائية ، واتخذوهم مساعدين لهم فى تحضير كل ما من شأنه أن يسهل مهمتهم ، وقالوا بصوت واضح « ليس أسهل من الصيد ، ولكى يصبح الانسان صيادا يجب أن يمارس الصيد ، تماما مثلما يتعلم السباحة » . والذين استمعوا اليهم بافتباه لم يصدقوا آذانهم ، أول الامر ، لكن الإغراء الخفى الماكر جر الكثيرين ، فيوما بعد يوم كان ينضم الى مجانين البلدة مجسائين آخرون ، وكان الوافدون الجدد يمثلون زهوا حين تصيب طلقاتهم طيرا من الطيور ،

وبين عشية وأخرى يتحولون الى مهووسين لا يعرفون الراحة والهدوء الا بالقتل والركض وراء الطيور من مكان الى آخر .

هكذا بدأت اللعبة أول الامر . وهي وان بدأت صغيرة خفية ، فقد أثارت حنق عدد كبير من المسنين ، والذين ينظرون الى الصيد على انه وسيلة للرزق والحياة .

لقد كانت اللعبة أقرب الى العبث ولا تناسب الرجال الذين يقدمون مسئولياتهم ، ويجب أن يشغلوا بالهموم الكبيرة التي أخذت تزداد يوما بعد آخر . لكن اللعبة تكبر وتتسع كل يوم . والذين أبدوا بعض التردد ما لبثوا أن تراجعوا ، خاصة حين أخذوا يشاهدون طيور النطا محمولة بالعشرات ، حين يقلبونها ليتأكدوا من كمية اللحم فيها فكانوا يقولون بصوت عال : - ضعيفة . . نعم انها أضعف من أية سعة سابقة !

ولكى يتأكدوا ان ما يقولونه هو الحقيقة كانوا يقلبونها مرة أخرى ، ويشعرون على صدورهم ، وبهذه الحركات الاضالية ، وبضغط الاصابع على اللحم الطرى ، كانت تتغير مواقفهم ويحسمون برغبة مفرية . أما حين يبدؤون بعدها فكان التردد يتراجع مع كل رقم جديد ، لكن دون اعلان ، ودون كلمات ، ويكون كل واحد منهم قد اتخذ قرارا داخليا ان يبدأ اللعبة !

والمسنون الذين صرخوا بغضب ، واعتبروا هذا الهوس نوعا من الفتنة أو الجنون ، ولا يليق بالرجال في مثل هذه المعنة القاسية ، ما لبثوا أن تراجعوا . صحيح انهم لم يفعلوا ذلك سريعا وبشكل علني ، لكن اعتراضاتهم بدأت تقل وتراجع يوما بعد آخر ، وبدأت كلماتهم تأخذ طابعا ليئا أقرب الى النصح :

- اذهبوا الى المدينة واعملوا هناك ، أما أن تنتشروا في هذه الارض الفبراء ، وان تتشردوا بين الجبال والصحراء ، من أجل طيور جائعة ، وليس فيها سوى العصب والريش ، فان ذلك مضیعة للوقت .

وحين يهز الشباب رموسهم اشارة الى انهم سمعوا ما قاله المسنون ، دون أن تعنى الاشارة موافقة أو رفضا ، كان يضيف بعض المسنين :

- اذا جاءت المصائب فانها تجيء مرة واحدة !

وتستمر اللعبة تكبر ، ويستمر الشباب في ترتيب لوازم الصيد لليوم التالي : يهيئون الخرطوش ، ينظفون البنادق ، يصنعون قطعا من القماش الملون الملى بالشقوب لاستدراج الطيور والاحتيال عليها . وحين يرى



المستنون ذلك ، ويجدون لدى الشباب اصرارا لا يتزعزع ، كانت لهجة  
الكثيرين تصبح أكثر حنوا وخوفا :

— هذا البارود يأكل الأخضر واليابس ، يجب أن تحذروا !  
ويرقب المستنون بعناية الطريقة التي يصنع بها الخرطوش ليتأكدوا ان  
الشباب يفعلون ذلك دون ما خطأ ، فاذا تأكدوا كانت كلمة وحيدة  
تتكرر بلا انقطاع :

— كل البلاء من المجنون الكبير عساف !

عساف الرجل الذى يعرفه أهل الطيبة كلهم ، نساء ورجالا ، كبارا وصغارا ، هو نفسه عساف الذى يبدو غامضا ومجهولا بالنسبة للجميع ، وكلما يراه أو يجلس معه أحد .

بين الاربعين والخمسين ، طويل مع انحناء صغيرة ، ضامر لكنه قوى البنية ، أعزب لأسباب يختلف فيها الناس كثيرا . قيل انه كان يريد ابنة عمه ، لكن أباهما رفض « لان عساف بلا عمل ولا يستطيع أن يعيل نفسه فكيف اذا تزوج وجاءه أولاد » ؟ وقيل ان الفتاة رفضت وهددت أن تحرق نفسها ان هم أجبروها على الزواج به ، وتعللت بفساوة الطبع والقبسوة ، وحين سنلت أمها ، فى وقت متأخر ، أبدت استنكارها الشديد ، وقالت ان حذاء ابنتها يعادل رأس هذا المتشرد الذى يعيش فى البرارى والمغاور ، وصفته بالمجنون أيضا . ولو حاول أى انسان التحرى عن أسباب أخرى لوجد الكثير . ان هذه القضية التى شغلت الطيبة وقسا ما انتهت بصمت وهدوء ، ولم تعد تشغل أحدا . أما ما خلفته من نتائج فاسم جديد لعساف : أبو ليل . وبعض الذين استمروا يبدون اهتماما بهذا الامر ، تحول لديهم هذا الاهتمام مع الايام الى نوع من الطرافة والسخرية ، خاصة وان عساف يرفض الاجابة عن أى سؤال له علاقة بهذا الموضوع ، وهكذا تعود الناس أن يكون عساف بهذا الشكل ، ولو ظهر بشكل آخر لبدا غريبا .

منذ كان صغيرا شغلته قضية الصيد ، وهذه القضية كبرت عاما بعد عام مادام عساف يكبر ، واذا كانت بسيطة وبداية حين كان صغيرا ، ويفعل ما يفعله الصبيان فى مثل عمره ، فقد كان أكثرهم ولعا وتعلقا . أما حين مات أبوه فقد استغرق فى هذه الهواية الخطرة . لم يعد يكتفى بما يفعله الصغار ، كان يقلد الكبار ويذهب حيث يذهبون ، وكان يحاول باستمرار ابتداء وسائل جديدة للصيد . ونتيجة لهذا الوضع فقد اكتسب عادات خاصة أقرب الى الغرابة ، كان يقضى وقته فى البساتين ، بدأ التدخين فى سن مبكرة ، أصبح كثير التفكير والتأمل فى كل ما حوله من طبيعة وبشر وحيوانات ، وكان أغلب الاحيان بعيدا عن الناس ، أما حين يكون بينهم فالصمت سلاحه تجاه الآخرين .

ظل يتطور بهذا الشكل ، وحين ماتت أمه ، تغيرت طباعه أكثر من قبل ، فبدل أن يعود الى البلدة ويصبح مثل الآخرين ، يزرع ويحصد ويستقر ، فقد اشترى بندقية صيد من النوع القديم ، وبدأ الامر غريبا أن يكون فتى في الثالثة عشرة يقلد الكبار ويلحق الطيور التي لا يفكر بها من كان في عمره ، وان يقضى وقته كله خارج البلدة وحيدا ينتقل من واد الى آخر ومن جبل الى آخر .

ان أجزاء كبيرة من حياة عساف بعد ذلك مبهولة ، وحتى لو أراد هو نفسه أن يستعيد حياته ، فلا يتذكر الا الشيء القليل ، لا يذكر أحداثا كبيرة أو هامة ، سوى تلك التي لها علاقة بالصيد : أين ضرب الذئب وكيف ضربه ؟ كم مرة اضطر للنوم في المغاور خوفا من الموت بردا ، بعد أن سقط الثلج وتراكم بكثافة ليسد الطرق ويجعل الحركة صعبة ، ويتذكر عدد المرات التي رفض أن يضرب اناث الحجل لأنها كانت تسبق أمامها أفراخها الصغيرة . ان هذه الذكريات وما يشبهها لا تعنى أحدا غيره ، وحتى لو أراد أن يتحدث فان حديثه يبدو غامضا متداخلا ، ولا يستطيع أن يتابعه !

هذا النوع من البشر يتحول يوما بعد آخر الى حالة من الغسابة والاضطواء ، ويصبح بطبيعته أميل الى الابتعاد عن الناس أو الاهتمام بهم ، كما ان له عالمه الخاص وهمومه التي لا يشاركه فيها الآخرون ، اما طريقته في التعبير فتكون قاسية فظة ، وقد تؤذى اذا لم تفهم هذه الطبيعة ويحسن التعامل معها .

والطبيعة ، التي عرفت انماطا كثيرة من البشر ، تعودت على عساف كما تعودت على هذه الانماط ، ولم يعد مظهره الرث أو صمته ، وحتى الشتائم التي يطلقها بعض الاحيان ، اذا حاصره أحد وانهاالت عليه الاسئلة والاستفزازات . . لم تعد هذه الامور تثير حرجا أو خصومات ، اذا ما تكاد تبدأ حتى "تخذ شكلا سائرا اول الامر ثم ضاحكا في النهاية . وعساف الذي تعود على هذه الحياة كان يجد صعوبة كبيرة في أن يغيرها . وفي المرات القليلة التي كان يضطر الى استبدال بعض من ملابسه بفعل اشياء لا تخطر على بال ولا يفعلها أي عاقل . فحين يبلى حذاءه ويكون مضطرا لشراء حذاء جديد ، لا يستطيع أن يستعمل الحذاء الذي يشتريه مباشرة ، فكان يدخل عليه تعديلات كبيرة ، تفسده في بعض الحالات . كان يلجأ الى قص الجلد عند الاصبعين الصغيرين ، وكان يضرب الحذاء ضربات قوية بعد أن يضعه في الماء . ولو سأل أحد عن ذلك لما كان لديه شيء يقوله ، حتى هو لا يعرف لماذا يفعل مايفعله . ولو



اقتصر الامر على الاحذية لهان وفهم . لكنه كان يفعل بملابسه شيئا مماثلا . كان يمزق السراويل في مواضع كثيرة ، وفي تلك المواضع يخيط عددا من الرقع الملونة وبعض الاحيان قطعاً من الجلد الطرى ان هذا شأن من شئونه ، ولا يستطيع أحد أن يناقشه أو يقنعه بغير ذلك . أما في أيام الاعياد ، وحين يكون مضطرا أن يمر على معظم بيوت الطيبة ، كما هي العادة منذ أقدم الأيام ، فكان لا يغير شيئا في مظهره ، كما تعود الناس أن يفعلوا ، وقد يبالغ فيلبس أسوأ ما في غرفته الصغيرة . . . وهي الغرفة الوحيدة التي بقيت له بعد أن باع البستان أول الامر ، ثم باع بعد ذلك جزءا من الدار ، ولم يبق الا على الغرفة الداخلية وحاكورة صغيرة .

هكذا تعود أهل الطيبة على عساف ، ونتيجة الالة والاستمرار ، لم يعد يثير تساؤلا أو استنكارا : الشيء الوحيد الذي أثار اهتمام الناس ذات يوم ، ولم يستمر هذا الشيء طويلا ، ان عساف اقتنى كلبا . ولقد بالغ كثيرا ، حين سئل عن الكلب ، في الحديث عن أهميته وأصله ، وبالعكس أكثر من ذلك في تحديد المبلغ الذي دفعه ثمنه له ، وقد قيل مرات كثيرة ان عساف وجد الكلب ضائعا ، ربما من صياد غريب ، فجاء به ، وتجرا بعض الناس في الطيبة وقال ان عساف سرقه . وعساف الذي سمع بعض ما يقوله الناس ، كان يتحسم دون اهتمام ، ويضطرب على ظهر الكلب بنودة ، ويقول له : « اسمع ما يقول الهبل » وخلال هذه الفترة قضى عساف وقتا أطول مما تعود في البيت . وقضى بعد ذلك اسبوعين في الطيبة ، لم يخرج خلالها الى الصيد ، وقد فسر الامر بالخوف ، فالذين قالوا انه سرق الكلب ، كانوا متأكدين من ذلك أكثر من قبل ، لان الامر لو كان له سبب آخر لما خشي عساف الخروج الى الصيد واصطحاب كلبه معه . اما الذين قالوا ان عساف وجدته فقد كانوا على يقين ان الكلب سيعود الى أصحابه حالما يخرج من الدار ويصبح حرا ، ولن يستطيع أن يفعل شيئا لو هرب الكلب وعاد الى أصحابه . أما الحقيقة فهي ان عساف لا يثق الا بما يفعله ، ولا يتأكد الا اذا فعل الشيء بنفسه ، ولذلك ، وبعد أن وافق صيادين جاءوا الى الطيبة من مكان بعيد ، ونتيجة للجهد الذي بذله معهم ، ولأنه دلهم على أماكن مناسبة للحجل ، ثم تنازل لهم عن الطسور الخمسة التي اصطادها ، أعطوه ذلك الكلب . لكن عساف لم يكن واثقا من الكلب ثقة كافية ، وقد أجهد نفسه لفترة طويلة لكي يدرجه ، فأثار بذلك سخرية أهل الطيبة . ومن جملة ما فعله عساف في هذه الفترة ،

اضافة الى المدة التي قضاهما في البيت ، انه ربط الكلب بحبل وبدأ يتجول به الاماكن القريبة ، واشترى له كمية من « الحامض حلو » ، وحاول أن يعلمه عادات جديدة ، والناس الذين رأوه يجبر الكلب بالحبل ضحكوا طويلا وابدوا سخرية مريرة :

— انظروا .. المجنون يربط كلب الصيد !

— لا أحد يدري من يصيد لمن .. أو من يساعد من !

لم يكتفوا بذلك وإنما انضموا الى الذين اتهموه بسرقة الكلب ، ولو لم يكن الامر كذلك لما فعل ما يفعله الآن !

— سبحان الخالق .. ربما ولدتهما أم واحدة .. انظروا .. انه يشبهه تماما .

ان ذلك كله من تاريخ الطيبة الاقرب الى النسيان . فبعد ان أصبح عساف والكلب متلازمين ، بدت صورتا الاثنين واحدة ، وتجرا بعض الخبثاء ، وقالوا ان شبيها قويا بين عساف والكلب ، من حيث ضخامة الانف وكبر الاذنين ، ومن الصوت المكتوم الاقرب الى الفرغرة . طبيعي لم يستطع أحد أن يقول هذا الكلام مباشرة لعساف ، أو اثناء وجوده ، لكن أحدا لا يسمى الكلب الا عساف ، ولا أحد ينظر اليه الا تلك النظرة !

ان الطيبة مثل كل القرى والبلدات الاخرى التي تشبهها ، من حيث القسوة والسخرية ورغبة التندر واختلاق بعض الاكاذيب ، وفي اغتياب الناس أيضا ، خاصة اذا كان هؤلاء مثل عساف ، اذا ما يكاد يظهر في غبش الصباح الاول ويراه أحد حتى يمتلئ وجهه من يراه بابتسامة أقرب الى السخرية ، ويسأله تلك الاسئلة عن الصيد والكلب ، وعن العجائب التي يراها في البرية ! اما اذا طالت السهرات وامتلات بالاحاديث فلا بد أن يتبرع أحد ويقول شيئا ساخرا :

— رأيت اليوم عساف يحمل الكلب على ظهره .

ويقول آخر والضحكة تملأ حلقه :

— رأيت اليوم عساف الحقيقي يحمل البندقية ويصيد .. ولا بد أن

يكون هو الصياد وليس هذا الكلوب .

ويقول ثالث :

— أطلق عساف النار على ديك حجل فلم يصبه وأصاب الكلب ،

ولذلك فهو كلب أعور !

ان شيئا ما قد حصل في وقت من الاوقات ، لكن طريقة الطيبة في

نقل الاخبار تختلف عما يجاورها ، اذ لابد أن يكون في أية قصة

يرونها أحد من أهل الطيبة مقدار من الصحة . فعين الكلب المطفأة  
كانت هكذا منذ اليوم الأول الذي وصل الكلب الى الطيبة . واذا كان  
عساف قد قبله هكذا ولم يسأل كيف عورت عينه أو متى فقد قال  
ذات يوم ان ذلك ربما وقع فى الصيد ، ولم يضيف شيئا ، اما الطيبة  
فقد روت ذلك على انه وقع لعساف ، ومع ذلك الكلب . واذا كان  
عساف قد اضطر الى حمل الكلب ذات مرة ، فقد فعل ذلك بعد معركة  
مريرة بين كلبه وذئب ، وقد كاد عساف ذاته يموت خسلا لتلك  
المعركة . أما الكلب فقد نهش فى اكثر من موضع ، ولو ترك لمات !  
أما حديث البندقية التى يزعم بعض أهل الطيبة انه رأى الكلب يحملها  
ويصيد بها فلا أساس له البتة ، وانما هو وهم وحسد . لان الكلب ،  
وبعد تدريب طويل ، كان يساعد فى حمل قسم من الصيد ، كان يحمل  
ديكا من الحجل بين أسنانه !

والطيبة التى تحب الفكاهة والسخرية ، فعل غيرها من القرى ، فى  
أوقات الراحة والفرح ، تتغير كثيرا أيام الاحزان ، وتتغير أكثر من أيام  
تشبع الامطار وتأتى سنوات المحل . تصبح بلدة أقرب الى السواد ،  
تغطيها الظلمة عند الغروب ، وتمتد فوقها موجة من الصمت والاحزان  
وتبدو لياليها طويلة ساكنة عدا أصوات الكلاب المنردة الجائعة ،  
وطلقات تائية فى بعض الاحيان . وفوق الطيبة ، فى مثل هذه الايام ،  
تنتشر رائحة ثقيلة منكرة ، لكن لا يميز تلك الرائحة الا من عرفها أو  
تنشقها ذات يوم !

... وفى هذه الايام تتغير أشياء كثيرة !



هذه السنة ليست مثل أية سنة سابقة ، هكذا بدأت منذ الأيام الأولى للشتاء ، فالامطار المبكرة التي تنتظرها جميع القرى الواقعة على أطراف البادية ، والتي تبشر بموسم خصب ، وتحمل معها اعدادا لاحصر لها من النباتات البرية ، ويقال ان تلك النباتات تنزل من السماء مع المطر - هذه السنة جاءت باردة شديدة القسوة ولم تجيء بالامطار . وأهل الطبيعة الذين تعودوا على استقبال مثل هذه الشتات الباردة لم يستغربوا ولم يتبرموا ، لانهم لا زالوا في أول الشتاء ، ولان أيام الخير أمامهم لا تزال كثيرة وطويلة ، لكن المسنين الذين خبروا دورات الطبيعة ، وعرفوا بشائر الخير من ثمر القحط ، دخل الخوف قلوبهم : كان خوفا أقرب الى الحزن ، وارتفعت في ذاكرتهم أيام هذه الأيام ، ثم جاءت بعدها المصائب والأمراض ، وأخيرا جاء الموت ، ومع ذلك كتموا مشاعرهم في صدورهم وصمتوا . أما الرجال الآخرون ، الأصغر سنا والاقبل دراية بالمواسم والطبيعة ، فقد نظروا الى السماء بتساؤل ، وداخلهم الشك فيما يعرفون من أمور . وحين سألهم الصغار ان كان الكماء والفطر والحميض والخبيز وعشرات النباتات البرية الأخرى ، ستأتى هذه السنة ، نظروا الى الصغار بارتياح ، وكان مثل هذه الاسئلة تحمل لهم امتحانا عسيرا ، واكتفوا بإجابات غامضة ، أقرب الى التعدى :

- الشتاء في أوله ، وانتم مرضى بشيء لم نعرفه عندما كنا في أعماركم . . . انتم مرضى بالاسئلة التي لاجواب لها ! والصغار الذين لم يكتفوا ولم يقتنعوا بإجابات الآباء ، ذهبوا الى الامهات وامطروهن بأسئلة لا تنتهى : « متى نذهب الى التشول (١) للفقح ؟ » ، « متى نذهب الى الكماء ؟ » ، « سنجد كميات كبيرة من الفطر هذه السنة كما وجدناها في السنة الماضية ؟ » وإذا كان الابناء ، في مثل هذه السن ، لا يجرون على مناقشة الآباء أو الالتفات بسؤالهم ، فانهم على الامهات أكثر جراءة وأكثر الحاحا ، والامهات

بطريقة غامضة ، وتمييز بمكر خفى ، يحاولون بكل الوسائل أن يصرفوا  
الابناء عن مثل هذه الاسئلة ، لكن الوعود تبقى قائمة ، والرهوس  
تشتعل بعشرات الرغبات والاحلام . اما اذا نظرت النسوة في وجوه  
الرجال ، خاصة المسنين ، فكن يقرأن في تلك الوجوه مصاعب الايام  
القادمة وآلامها التي لا يمكن أن تنسى !

هكذا بدأ الشتاء في هذه السنة ، واذا كان كل يوم يأتي ولا يأتي  
المطر ، يحمل معه مزيدا من العصبية للذين يذهبون الى الحقول ،  
وينظرون اليها بحزن ، وقد تحجرت التربة من البرودة ، وعبثت بها  
العصافير الموسيقية التي تأتي باعداد كبيرة وتخلق في الجو دويا لا ينقطع  
منذ الفجر وحتى الغروب ، ولا ترهب هذه العصافير الفزاعات السوداء  
التي تنصب في أماكن عديدة من الحقول - ان كل يوم يمر يحمل قليلا  
جديدا ، ويضيف خوفا جديدا في قلوب الرجال ، وهما ثقيلتا قرب الى  
الحزن في قلوب النساء أما حين يعصف الجور وتعربد الرياح الباردة  
فان انتظارا مضيا يشبه حد الموسيقى يسيطر على البلدة : « هل ستحمل  
هذه الرياح المطر ؟ هل سينبت الزرع بعد هذا الجفاف الطويل ؟ واذا  
جاءت قطرة أو قطرتان ، فمن يضمن المطر في آذار ونيسان ؟ » وتهوم  
في الرهوس أسئلة من نوع آخر : « مادام الموسم قد انتهى ، فقد كان  
على الله أن يبعث لنا بالامطار الموسمية المبكرة ، لو جاءت تلك الامطار  
لاخرجت لنا البرية شيئا نأكله ويعوضنا عن التعب والموت ، لكن  
الموسم انتهى ، وآذار لم تبق فيه الا أيام . وينقضي دون قطرة مطر ،  
ولا أحد يعرف كيف ستكون الحياة بعد ذلك ! »

في نهاية آذار تماما هطل المطر . كان مطرا غزيرا استمر يومين  
متوالين . وخلال هذين اليومين تغيرت وجوه الناس وتصرفاتهم ، حتى  
الذين لا علاقة لهم بالزراعة مباشرة بدوا أكثر فرحا ، وبعض الاحيان  
اقرب الى الخفة في التعبير عن ذلك الفرح ، وتجرا الكثيرون وقالوا :  
« موسم هذه السنة ، خاصة بالنسبة للصيفي ، سيكون أحسن من  
جميع المواسم التي شهدناها من قبل » . لكن الذين يزرعون ، والذين  
عرفوا دورات الطبيعة ، لم يتكلموا ولم يتغاملوا ، كانوا ينتظرون شيئا  
آخر . وفي هذه الايام ، وبعد أن اشرقت الشمس وملا الكون في  
اليوم الثالث ، ما لبث الذين امتنعوا عن الزرع في بداية الموسم ، أن  
حرثوا الارض على عجل ، واستعانوا بكل الوسائل ، لكنهم لم يسمعون  
لانفسهم زرعا وفيرا مثل غيرهم !

لكن مطر آذار بغزارته وجنونه لا يمكن أن يقنع المسنين ولا

يرضيه ، ان لهؤلاء مزاجا يختلف عن غيرهم ، وهذا المزاج ربما كونه الطبيعية والايام الطويلة والمخاوف ، ربما يتولد لاسباب غامضة مجهولة ! وقد تكون له علاقة بالارض ذاتها ، اذ يشعر أى واحد من هؤلاء ان كل يوم جديد يقربه أكثر فأكثر من الارض . وما دام الامر هكذا ، فان أمنية خفية تدفعه لان يتمنى أرضا من نوع ما يمكن ان تستقبل لحمه وعظامه ويحس بنفس الخفاء ان هذا الجفاف الذى تسرب عميقا الى الارض ، ثم تلك الرخاوة اللزجة التى جاء بها مطر آذار ، لا يناسبان ويتمنى لو انه لا يغادر الحياة فى مثل السنة القاسية . وحتى لو بلغ اليأس مبلغا كبيرا فى قلوب المستنئين وأصابهم الغم والسأم من هذه الدورة العاتية للطبيعة ، فقد كان كل واحد منهم يريد أن يموت موتا كريما لاثقا ، ان يموت فى الوقت الذى انهى كل ما يجب ان يفعله فى هذه الحياة ، وان يغادر الدنيا بهدوء وسلام ، دون جلبة ، ولكن باحترام يناسب عمره ، اما أن يموت مثلما يموت الصغار ، أو مثلما تموت الدواب ، بطريقة مفاجئة ، ودون انذار من أى نوع - ان موتا مثل هذا يدفعه الى شعور عميق باليأس !

ومثلما توقع المستنون حصلت الامور بعد ذلك : فالزرع الذى اعتز فى أعماق التربة من الامطار الغزيرة التى سقطت فى نهاية آذار ، ما لبث أن شق الارض وبدأ ينمو . كانت الزروع بنموها الزاهى ، رغم المسافات المتباعدة فيما بينها ، نتيجة لهجوم العصافير وتقليب المحارث ، كانت بنموها قوية واثقة ، وما كادت شمس نيسان تحتضنها بالدفء حتى انتعشت وتحسركت أكثر من قبل . واذا كان الفلاحون - بتفاؤل موهوم يرددون باصرار ان ما يحتاجون اليه مطرة أو مطرتين فى نيسان : الاولى فى النصف الاول ، والثانية فى نهايته ، ثم مطرة أخيرة فى منتصف آيار ، رغم هذا التفاؤل الذى يحاولون من خلاله أن يقنعوا أنفسهم قبل أن يقنعوا غيرهم ، فقد كانت مثل هذه الامنيات مستحيلة ، لان السنة من بدايتها كانت تنذر بالقحط . قال هذا المستنون فى داخلهم ، وقال هذا عساف بصوت عال وأمام جميع الناس . ولو ان أحدا سأل عساف عن السبب الذى يدعوه لان يقول مثل هذا القول ، فلم يكن يملك جوابا واضحا أو مقنعا ، كان يكتفى بأن يقول :

- انتظروا .. هذا ما أقوله .. وسوف ترون كل شيء بعينكم !  
والناس حين يسمعون هذا الكلام من عساف تتملكهم العصبية ويصبحون سريعى الغضب ، وأقرب الى التحدى ، لكن فى قوارة أنفسهم



يحسون ان ما يقوله هذا المجنون لا يشبه الكلام الذى يقوله غيره ، ان فيه شيئا من الحقيقة ، حقيقة خفية غامضة ، وربما مرتبطة بأمر لا يعرفونه .

ومثلما أحس المسنون. ، ثم توقعوا ، بدأت تتسرب من أفواههم كلمات التحذير ، ثم كلمات الخوف ، وفى وقت لاحق قالوا بوضوح شديد :  
- ستكون هذه السنة من أصعب السنين التى مرت على الطيبة !  
وبعد لحظات من التفكير والتذكر الحزين يضيف أحد المسنين :  
- لا أتذكر ان سنة مثل هذه مرت على الطيبة من قبل .

ومثلما توقع المسنون .. ومثلما قال عساف حصل كل شيء بعد ذلك !

## - ٧ -

في هذا الغم الذي يلف الطيبة من كل جوانبها ، ويزداد يوما بعد آخر ، كان عساف لا يهدأ ولا يستريح ، اذ ما يكاد يعود بعد الغروب ، حاملا معه عشرات الطيور ، حتى يبدأ يدق بعض الابواب . كان يختار تلك الابواب بعناية ، ويفكر بذلك من قبل طويلا . كان مع كل طلقة ينوي حتى قبل سقوط الطير : « أنت لام صبرى » ، و « انت لداود الاعشى » ، « وانت لسعيد الذي لا يتقن في هذه الدنيا سوى انجاب البنات » !

هكذا كان يفعل وهو يطارد الطيور . وحين يدق الابواب ، ولكي لا يخلق ذلك الخوف الغامض المتربص في كل القلوب ، والذي يعلن عن نهاية صديق أو قريب ، كانت الكلمات التي يطلقها عساف في الهواء وقبل أن يفتح له الباب :

- أنا عساف .. جئت لأمسى عليكم !

وقبل أن يسمع الكلمات التي تنهال عليه ، يكون قد ألقى بعض الطيور ومشى !

كان يفعل ذلك كل ليلة ، ولا يبقى لنفسه إلا طيرا . وبعض الاحيان لا يبقى شيئا ، وحالما ينتهي من هذه المهمة ، وعلى ضوء فانوس صغير يبدأ بتحضير خرطوش اليوم التالي . يبدأ مهمة لا تعرف التعب أو التوقف ، ولا يكاد يأكل لقمة في نهاية السهرة حتى يغط في نوم عميق ، وفي هذا النوم يرى أحلاما لا حصر لها ، كانت تتراءى له آلاف الصور : كيف كانت الطيبة وكيف هي الان ؟ ويسأل نفسه : لماذا تصبح الحياة أكثر صعوبة يوما بعد آخر . اما حين تظهر له صور الاشجار والطيور ، ثم صورة الماء الجاري دون توقف وصورة الربيع يغطي مساحات لانهاية لها ، فكان يرى كل شيء يطير . كانت السماء تمتلئ بالطيور ، وكان الصيادون لا يصيدون الا في المواسم والطيور التي يجب أن تصاد . ثم تظهر له صور الذين ماتوا ، اما حين يبدأ المطر بالسقوط ويخاف ان توحل الارض وتمنعه من العودة فكان يركض ، وعند ذلك يفرغ ويستيقظ من نومه وقد امتلأ خوفا أن يكون الوقت قد فات ، وحين يحس برائحة الغبار تملأ جو الغرفة يترك عينيه

لكي يتأكد من الوقت . كانت له ساعة في داخله لا تخطيء ، لم تخطيء مرة واحدة طوال هذه السنين . لا تخطيء في الصيف ولا تخطيء في الشتاء . حتى الذين كانوا يأتون الى الطيبة من المدينة ، ويستعدون كثيرا من أجل رحلة الصيد مع عساف ، وينصبون الساعات المنيهة ، ويصدرون الاوامر الصارمة الى المسنين لكي يوقظوهم في الوقت المناسب ، لئلا يتركهم عساف ويمشي ، بحجة ان الشمس ستشرق ويضيع اليوم ، ولكي يكونوا في « المقوس » عند الشروق - حتى هؤلاء كانوا يخطئون وعساف لا يخطيء ولا تخطيء ساعته ا

وعساف الذي تعود خلال فترة طويلة أن يخرج الى الصيد وحيدا مع كلبه ، كان يجد صعوبة في أن يرد الذين يطلبون الخروج معه ، خاصة من الضيوف ، أو في سنة من سنوات القحط . كان يتمنى لو يبقى وحيدا ، لكن ماذا يستطيع أن يفعل وقد امحلت الارض وابتعدت الغيوم ولم يعد عند الناس شيء يأكلونه ؟ حتى أماكن الصيد التي خباها لنفسه في فترات سابقة ، وكان يردد لنفسه باصرار انه لن يترك أحدا يصلها ولن يدل أحدا عليها ، لا يستطيع أن يمتنع طويلا في اخفائها . . لكن كان ينبه بتأكيد حازم :

- لا تقبلوا الاناث ، انها رزقنا الباقي ا

وحين لا يكون متأكدا انهم فهموا جيدا يضيف :

- الاناث . . اناث الحجل ، صغيرة ولونها واضح .

اما اذا سألوه مزيدا من التوضيح والمعلومات فكان يقول :

- ديك الحجل ، مثل بعض الرجال ، جبان .

وينظر في وجوههم ويضحك ، ثم يتابع :

- انه يخاف على نفسه كثيرا ، وهو بلون زاه ، ملون اكثر من

الانثى ، ويطير قبلها ا

ويهزون رؤوسهم دلالة المعرفة ، لكن عساف يخاف هؤلاء الصيادين ويكره الجبناء والخبثاء منهم ، ويخاف أكثر من ذلك أن يأتي يوم لا تجد الطيبة طيرا تصيده . كان يقول بصوت مليء بالاسى :

- هذه الطيور لنا ، اليوم أو غدا ، وستبقى لنا اذا حافظنا عليها ، أما اذا قتلناها كلها اذا طاردناها كثيرا ، فسوف تنتهي أو تبحث عن مكان آخر .

ويصرخ بعصبية وقد تراءت له الارض خالية تماما من طيور الحجل :

- اسمعوا . . اذا انتهت هذه الطيور وجاءت سنة من سنوات المحل ،

واذا ظلت الحكومة تكذب سنة بعد سنة ولا تبني السد ، فتأكدوا ان



أهل الطيبة سيموتون عن بكرة أبيهم . أنا متأكد من ذلك ، فهل يستطيع ابن حرة أن يقتل البشر والطيور ؟

هكذا كان يجرى الحديث في بداية كل رحلة ، ورغم ذلك يغمطر عساف لقيادة قافلة الصيادين الى أماكن الحجل ، لكنه يلجأ الى المكسر أغلب الأحيان : كان يقودهم الى الأماكن الصعبة ، الى الأماكن البعيدة والخطرة ، وكان يعرف ان التعب او الخوف اذا دخل قلب الصياد يفاديه كثيرا من قسوته ويجعله رحيما . هكذا كان يفعل في بداية الموسم ، أما اذا قست الحياة على الطيبة اكثر من قبل وحاصرها الجوع وبدأ يفتك بها ، فكان يتردد في أن يتجاوز كثيرا من القيود التي كان يرضيها على نفسه وعلى الآخرين . لكنه يتألم ، يشتمل بالشتائم ويرتكب الكثير من الحماقات . وكان يقول لنفسه لكي يبرر هذه الخطيئة التي تعذبه « اذا لم يأكل الناس الحجل فسوف تأكله بنات آوى والدثاب ، وحتى لو نجنا بعض هذه المخلوقات الملعونة ، فسوف يأتي الرعيان لكي يلتقطوا البيض ، ويجب أن لا يموت أهل الطيبة » .

ان له فلسفة خاصة تكونت مع الايام ومن التجارب ، وحتى لو أراد أن يقول بضع كلمات لكي يفسر ما يدور في عقله فلن يستطيع . أما اذا سأل أحد لماذا يفعل هذا الشيء ، ولماذا لا يفعل ذاك ، فكان يشعر بالحيرة والعجز ، كان يقول :

— هذه هي طريقة الصيد ، وهكذا يفعل الصياد !

ولا يضيف شيئا آخر .

بهذه الطريقة كان يتعامل مع الصيد ، وبهذه الفلسفة الغامضة يتصرف ، ويريد الآخرين أن يتصرفوا . فاذا جاء موسم الطيور المهاجرة يشعر بغبطة داخلية عميقة . كان يقول بصوت عال واضح العبرات ، ويريد من كل انسان أن يسمعه :

— ليشمر كل واحد منكم عن زنده ، وليثبت الصياد نفسه !

كان يقول مثل هذا الكلام لكي يضلل الصيادين الآخرين ويصرفهم عن الحجل . وهؤلاء الصيادون الذين تعبوا كثيرا من الحجل ، وحفيت أقدامهم وهم يتسلقون الصخور العالية أو وهم يهبطون الاودية السحيقة كانوا في قرارة أنفسهم يقبلون هذا الكلام ويوافقون عليه ، وفي نطاق التبرير يقولون لانفسهم ولبعضهم :

— ما دام شيخ الصيادين ، عساف ، يقول هذا فيجب أن نصدقه وأن نتبعه !

ولكي لا يترك الامر مكررا مجددا ، كان يسبقهم الى أماكن الطيور

المهاجرة وممراتها ، وإن لا يبخل عليهم بأية معلومات تساعدتهم وتمكنهم من صيد أوفر . وهم يندبر غامض يندفعون ، يندبرن حيث يريد ، إلى الأماكن التي يحددها وفي الأوقات التي يحددها ، وبهذه الطريقة يضمن أن بعض طيور الحجل لا تزال حية في المعاصي . كان يقول لنفسه بثقة : « حالما تشعر بالامن وبابتعاد أصوات الطلقات لابد أن تنزل إلى أماكنها وتعيش مرة أخرى بسلام ، ومرة أخرى ستفقس وتبدأ الفروج الجديدة تملأ الجبال والوديان » .

صحيح أن عساف في أعماقه يدرك أن كل حيوان وكل طير يعرف كيف يدافع عن نفسه وإلى أين يذهب ، إلا أنه حين يرى الصيادين الاغرار يزدادون قسوة ورعونة ، ويخرقون كل قاعدة ، كان يقول لنفسه بآلم « يقتلون الناس بهذه الطريقة ، والحجل يعرف كيف يختفي ، ويهيف بعد فترة صمت طويلة : « حين طاردوا الغزلان وقتلوها كلها أصبحت الصحراء مثل قبر كبير ، لا ترسل إلا الغبار والموت ، ويجب أن يكون أهل الطيبة أذكى من غيرهم فلا يقتلوا كل شيء » .

كان الحجل ، في مثل هذه السنين ، وبغريزة غامضة ، حتى بالنسبة لعساف نفسه ، يعرف كيف يختفي ، حتى ليبدو وكأنه انقرض نهائيا ، ولن يأتي شروق أو غروب في يوم من الأيام القادمة ويسمع صوته مثل دجاجات تائهة في سفوح الجبال الشرقية ، عند ذاك كان الصيادون ، وحتى الاغرار العنيدون ، يتحسرون ، والذي يساعد كثيرا في هذا التحول المناجيء أن طيور الصحراء ، خاصة القطا ، تبدأ بالاقتراب يوما بعد آخر من الطيبة ، وباندفاعها الارعن بحثا عن الحب والماء تعرض نفسها للهلاك ، حتى الاولاد الصغار ، في أوقات معينة ، وبذلك الوسائل البدائية التي يملكونها ، يستطيعون الاحتيال عليها واصطياد عدد منها .

لكن تبقى قوة الحياة هي الأقوى ، إذ يتحول القطا ، هذا الطائر الابله شيئا فشيئا إلى طائر جنى ، ورغم الجوع والعطش فإن قوة أخرى تسيطر عليه وتوجهه . فالقطا الطائش الذي يمكن أن يقتل بالعشرات والمئات في بداية الموسم ، والذي لا يميز الصياد عن الفلاح ، لا يلبث أن يصبح طيرا حذرا . والصيادون الذين يبدون نوعا من الترفع في بداية الموسم ، ويصفون القطا بعشرات الاوصاف الرديئة ، يصفونه بقسوة لحمه وغبائه ، وبانعدام اللذة نهائيا في صيده ، حتى هؤلاء يجدون أنفسهم يوما بعد آخر وقد الساقوا إلى ملاحقته . وفي هذه

الفترة ، ولتبرير هذا السلوك ، يقولون بصوت عال فيه تلك الكبرياء  
التي تميز الصيادين المغرورين :

- ضرب وتكبح ، وأصبح أكثر حذرا من الطيور الأخرى .  
ويضيف بعض هؤلاء بثقة كبيرة :

- ان صيده الآن أصعب من صيد الحجل !

هكذا تبدأ الدورة تتغير ، والطيبة التي تعيش أياما صعبة مريرة ،  
وتبحث عن طريقة لتواصل الحياة ، تتغاضى عن أشياء كثيرة ، بما في  
رغوة الشباب واندفاعهم الى الصيد بهوس لم يتعوده أحد ولم يكن  
يميزهم من قبل .

لذلك لا يستغرب أحد تلك السهرات التي ينظمها الشباب ، بين  
فترة وأخرى ، والتي يتفقون خلالها على الأماكن التي يجب أن يذهبوا  
إليها ، وعلى الطريقة التي تساعدكم في اصطيد عدد كبير من الطيور ،  
خاصة القطا والكدرى ، ويسرفون كثيرا في الحديث عن أخطاء الأيام  
الماضية ، وكيف يجب أن يتجنبوها . وعساف الذي لا يشترك في هذه  
السهرات الا نادرا ، ولا يهتم بما يدور فيها ، يعترف الى أين يذهب  
ومتى . وحين يسأله الشباب عن الأماكن والطريقة التي يجب أن  
يتبعوها ، يكتفى بإجابات قصيرة وحاسمة :

- هذا الجنون الذي يملأ عقولكم لابد أن يقضى على الصيد كله .

وبكلمات قاسية ، وفيها ذلك النزق الذي يميزه ، يضيف :

- الايام الصعبة لم تأت بعد ، وعلينا أن نستعد لتلك الايام !  
فاذا سمع كلمات السخرية والتحدى ، واذا اتهموه انه يريد  
التهرب ، كان بانفعال يجيب :

- اذا وفرتم الخرطوش ، اذا كنتم اكثر عقلا وصبرا ، فالقطا سيصل  
اليكم ، ولن تحتاجوا لان تذهبوا اليه !

لكن الشباب لا يسمعون ، وتظل دوافع غامضة وقوية تدفعهم لان  
ينتقموا ، لان يتباروا . وتحديات مثل هذه تدفع الطيبة ثمنها ،  
فالطيور التي كانت تهجم برعونه في بداية الموسم ، لا يلبث الخوف  
أن يملكها ، وتبدأ البحث عن أماكن أخرى ، أو تغير مواعيد مجيئها  
وهربها ، بكلمة . . تغير هذه الطيور طريقة حياتها ، وتصبح الحياة  
لكل مخلوق أكثر قسوة وأكثر صعوبة . حتى عساف نفسه ، الذي  
كان يعود بأعداد وفيرة من الطيسور ، يبدأ يواجه نفس القوة التي  
يواجهها الصيادون الاغرار ، ويبدأ صيده يقل ، ويصبح الصيد عملا  
مضنيا واقرب الى المغامرة .

لكن عساف لا يهدأ ولا يتوقف !



بدأت اذن الايام الصعبة القاسية . ومنلما اختارت الطيبة أن تكون في هذا الموقع من العالم ، على أطراف البادية ، فقد اختارت الصبيد والشجاعة ، وعرفت كيف تتحمل كل ما يواجهها من مكاره وصعاب . واذا كانت المجاعات تفرق عادة بين الناس ، وتجعل كل انسان يبحث لنفسه عن طريقة يؤمن بها خبزه ، فان المجاعات والاحزان تقرب بين الناس في الطيبة ، وتجعلهم اسرة واحدة وجسدا واحدا . وما عدا تلك الفئة الصغيرة التي جاءت من مكان بعيد ، واختارت الطيبة سكنا لها ، وظلت تعمل وتتصرف بروح الغرباء وخوفهم ، رغم ما قدم لها أهل الطيبة ، فان البشر اذا واجهوا المصاعب بروح من التعاون والمشاركة ، تبدو هذه المصاعب أقل قسوة ، ويمكن التغلب عليها . وبهذه الطريقة الغدة المليئة بالبطولة الصامته ، لم يترك أحد يموت دون أن تقدم اليه أقصى المعونات ، وأغلب الاحيان بشكل خفي لا يدركه أحد ، فالاسر الكبيرة العدد ، والتي لا تقوى على مواجهة الحياة ، كانت تفتح أبواب بيوتها ، في ساعة من ساعات الليل أو النهار ، ويرمي داخلها بكمية من الحنطة أو قليل من السكر والشاي والصابون والناس الذين فقدوا كل ما يملكون ثمننا للبذار ، ثم ثمننا لبعض الاشياء التي اشتروها من المدينة ، كان هؤلاء يجدون مساعدة لا تيسر للذين هم أكثر قدرة منهم . حتى المقعدون وذوو العاهات ، فقد تكفل بهم عدد من الشباب ، وكانوا يقدمون لهم الاكل المطبوخ ، وغالبا ما يكون حساء من الطيور أو الهريسة . أما النساء الارامل فقد كن في هذه الفترة موضع رعاية كبيرة .

لكن الطيبة التي تستطيع أن تطعم ابناءها أجزاء من لحمها لا تقوى على مواجهة مثل هذه المصائب سنة بعد أخرى بصدرها المكشوف وامكانياتها المحدودة . ورغم ان المسنين حذروا كثيرا من الاسراف ، وطلبوا من كل بيت أن يقتصد ما وسعه الافتصاد ، وان يعتبر الايام التي لا تزال الطيبة تعيشها الان أياما رخيصة ، وبعدها ستأتى المصائب الكبيرة كثيفة متلاحقة ، فان الطيبة ظلت تعيش على أمل غامض ، وظلت تنتظر شيئا ما ، لكن هذا الامل لم يتحقق كما توهمه الكثيرون ، واصبح الانتظار طويلا ممضا .

والإبناء في المدن البعيدة لم ينتظروا صرخات الاستغاثة وإنما بادروا إلى تقديم كل ما يستطيعون • بعثوا بكميات من الحنطة والشعير ، وبعثوا بالعدس والسكر والشاي والصابون ، وبعثوا أيضا يطلبون أن يأتي عدد من الأهل والأصدقاء ، لينزلوا عندهم في المدينة • وأهل الطيبة ، خاصة الذين تقدموا في العمر ، لا يقوون على الاستجابة لمثل هذه الطلبات ، ولا يتصورون أنفسهم يرحلون تاركين غيرهم للموت جوعا وعطشا ، أن مجرد تصور شيء مثل هذا يولد في النفوس خجلا لا يستطيعون احتماله ، ولذلك لا يجيبون على مثل هذه الرسائل ، ولا يلبونها • والإبناء الذين رحلوا ، وظلوا على صلة مع البلدة يعرفون جيدا أن ما يطلبونه أقرب إلى المستحيل ، ولن يستجيب إليه أحد ، ولذلك بالغوا أول الأمر في إرسال كل ما يستطيعون ، ثم بدأوا يتوافدون إلى البلدة ، للزيارة أول الأمر ، ثم للمشاركة بطريقة ما من أجل الوقوف في وجه هذا الكرب القاسي ، لعلمهم يستطيعون عمل شيء ، أو أن يتعلموا شيئا • كانت الزيارات تمتد أياما ، وتكرر في أوقات متقاربة ، كما لا تقتصر على المشاركة الوجدانية أو الرغبة في تعذيب النفس ، وإنما كانت ترافقها أشياء كثيرة : كميات إضافية من الحنطة والشعير ، أثواب من الخام ، وكانت تأتي معها الوعود والكلمات الكبيرة ، وإذا كانت تلك الوعود أقسى الأشياء وأصعبها لكل إنسان في الطيبة ، فقد أصبحت في هذه السنة عذابا لا يطيق أحد أن يتحملة • « لم يبق إلا القليل ويبدأ بعد ذلك بناء السد • • والسد إذا قام لن تعطش الطيبة ولن تجوع • » هكذا قال لنا الرجال المهمون في العاصمة ، وقالوا أيضا « أنه قبل نهاية الخريف ، وقبل موسم الأمطار ، ستبدأ الآلات تشق التربة وتدفع أمامها الصخور ، وسوف يأتي مئات العمال والمهندسين ، وسترون ذلك بأعينكم ! » •

وأهل الطيبة الذين يقبلون الأشياء التي تأتي ويوزعونها بعدالة ملرطة ، كانوا يسمعون كلمات المدينة الكبيرة ، ويسمعون عن السد الترابي الذي سينشأ قريبا من الطيبة ، ليجمع المياه التي تتدفق سيولا جارفة في بعض المواسم ، ثم تنتهي إلى باطن الأرض • ولا أحد يعرف كيف تغور هذه المياه أو إلى أين تذهب ، ولا تبقى من تلك السيول غير تلك الكميات الكبيرة من الحصى والمجاري العميقة التي جرفت أجزاء من الأراضي والبساتين ، ولا تبقى أيضا سوى الكلمات الكبيرة والوعود! كان أهل الطيبة يسمعون ذلك بصمت حزين ، ولا يدرون أيكذبون أبناءهم أو أولئك الرجال الرابضين هناك في الابنية الكبيرة المغلقة ،

كانوا يقولون لأنفسهم : « لقد قيل لنا مثل هذا الكلام مرات كثيرة ، وتنقضى السنوات ، سنة وراء سنة ، ولا شيء يتغير » وأهل الطيبة الذين تعودوا نسيان السد والطريق والكهرباء في مواسم الخير ، ولم يفكروا يوما واحدا أن يحصلوا على مثل هذه الخيرات ، فانهم في مواسم القحط يتذكرون كل شيء ، يتذكرون هيئات الرجال الذين أتوا ، والكلمات التي قالوها ، ويتذكرون أن بعض الذين جاءوا زائرين مع أبناء لهم الى الطيبة في سنوات سابقة ، سنوات الخصيب والمواسم الطيبة ، وذهبوا الى الصيد أيضا في المناطق المحيطة بالبلدة ، ورجعوا وقد امتلأوا نشوة وتصرفوا في لحظات معينة مثل الأطفال ، وبدوا صادقين . . ان بعض هؤلاء أصبح في المدينة البعيدة كبيرا مهما ، بحيث لا يذكر اسمه الا كما تذكر أسماء الانبياء والاولياء . ان هؤلاء لم يعودوا يتذكرون الطيبة ، ونسوا أصدقاءهم ، وانتهى الامر . والطيبة تعض على جراحها في مواسم القحط والجفاف . اما في مواسم الخير فلا تكف عن أن تبعث بسلال المشمش في بداية الموسم ، ثم بسلال العنب والتين في نهايته ، وبين الموسمين تبعث اللبن والجبن والبيض والخراف الصغيرة أيضا ، ولا تفتقر شيئا من المدينة . تبعث الطيبة كل هذا برضى أقرب الى الحبور ، ويتصور الآباء والامهات ، وهم يبعثون بالسلال وأكياس اللبن في السيارة الصغيرة التي تذهب في الصباح الباكر ، انهم لا يقومون بواجب فقط ، وانما يحسون بالمرارة والحزن أن تأخروا عن موعد سيارة الموظفين ، أو ان لم يستطيعوا قطف التين في الوقت المناسب !

والطيبة التي لم تتنكر ولم تتغير ، وظلت وفية لكل شيء فيها ولكل انسان عاش أو مر في يوم من الايام ، خلقت هذا الوفاء الفد في ابنائها ، والذي لا يوجد مثيل له فيما جاورها من القرى ، ولا يوجد أيضا في القرى البعيدة .

في هذه السنة القاسية الملونة جاء عدد كبير من أبناء الطيبة ، جاءوا دون طلب ودون ايعاز من أى نوع ، وما كانت أرجلهم تطأ أرض الطيبة ، وعيونهم تلامس بيوتها ، حتى أحسوا بالحزن العميق ، ولاموا أنفسهم كثيرا انهم تأخروا حتى هذا الوقت ، وشعروا بتأنيب الضمير حين قارنوا حياتهم في المدينة بحياة الناس في الطيبة . لكن هذا الحزن وهذا الندم تراجع بسرعة ليحل مكانهما الرغبة القوية في أن يفعلوا شيئا ، لعل الطيبة تنجو هذه المرة ، ولعلها تحيا وتستمر الى أن يبنى



السعد ، أو يقع شيء ما في المدينة البعيدة ، ويصبح من الممكن بعد ذلك مواجهة الطبيعة القاسية دون انتظار للعود الكاذبة أو للمطر الابله الذي يأتي سنة وينقطع سنوات .

تزع الذين وصلوا لتوهم ملابس المدينة ، ولبسوا مثلما كانوا يفعلون حين كانوا في البلدة قبل سنوات . وخلال اليوم مروا على أكثر بيوت الطيبة ، وسألوا عن الرجال والنساء ، وحزنوا كثيرا على الذين ماتوا ، وفكروا في أمور واقتراحات كثيرة ، وقرروا بينهم وبين أنفسهم عدة أمور ، ان هم عادوا الى المدينة مرة أخرى . لم يكتفوا بذلك ، بل وزعوا ما جاعوا به ، وكتبوا رسائل عديدة الى اقرباء وأصدقاء في المدينة البعيدة وفي المهجر . وفي الليل سهروا طويلا يفكرون ويتكلمون ، لكنهم كانوا يحسون في أعماقهم بالمرارة تكوى لهساتهم مع كل كلمة يقولونها ، لانهم لم يكونوا متأكدين من شيء .

واذا كانت الطيبة كثيرة الصبر والتسامح ، وتغفر للغرباء مثلما تغفر لابنائها ، فانها تعرف الغضب في مواسم الجفاف ، وهذا الغضب الذي قد يأخذ شكلا هينا في بعض الاوقات يتحول في النهاية الى جنون لا يطيقه ولا يتصوره أحد .

قال أحد القادمين ، وكان شابا يدرس في مكان بعيد :  
- الناس هناك لا يفعلون كما تفعلون انتم هنا . انهم .. هناك ..  
يحولون الكلمات الى قوة . قوة منظمة ومحاربة . ويجب ان نفعل مثلهم شيئا عاجلا قبل ان يلتهمنا الموت .

قال رجل مسن ، وهو يقلب شفتيه باستنكار ، ويقلب نظراته بين الارض والسما :  
- وماذا تريدنا ان نفعل ؟

وقبل ان يجيب الشاب تابع الرجل :  
- يجب ان تعرف : لا أحد يستطيع مقاومة الحكومة ، علينا ان نكون عقلاء ونفكر بما نستطيع عمله .

قال الشاب بعصبية :  
- القحط اذا جاء تنامون سنة كاملة ، واذا لم يجرى ، ترسمون الدعاء والرسائل ولا شيء غير ذلك ، وهذه الطريقة لن تبقى الطيبة !  
قال والد ذلك الشاب :

- الطيبة ، يا ولدي ، باقية .. لقد مرت سنوات صعبة كثيرة مثل

هذه ، تحمل الناس تلك السنوات وعاشوا بعد ذلك ، وظلت الطيبة !  
رد الشاب بسخرية :

- الموت والحياة في مثل هذه الظروف متساويان ، انظروا الى الارض  
والاشجار والدواب ، وانظروا في وجوه البشر ، ان كل شيء يموت ،  
واذا جاءت سنة مثل هذه السنة فلن يبقى شيء !  
كان يمكن لهذا الحديث أن يستمر وان يتطور لكن حين دخل  
الضيوف ، الذين جاءوا عصر ذلك اليوم ، الى المضافة ، تغير الجو فجأة .

فى عصر ذلك اليوم ، فى نهاية فصل الصيف تقريبا ، جاء أربعة من الضيوف ، جاءوا مع اصدقاء لهم من أهل الطيبة ، جاءوا فى سيارتين ، أحدهما سيارة جيب والاخرى فولكس فاكن صغيرة رمادية ، ورغم ان أبناء الطيبة ، المقيمين والراجلين ، يتميزون برهافة الحسى ودماثة الخلق ، ويعرفون كيف يعضون على جراحيهم بصمت ويكتمون أحزانهم بصبر عجيب ، حتى يخطئ الكثيرون فى فهمهم أو تحديد مشاعرهم ، فإن الكثير من المتاعب والمشاكل التى يريدون بحثها والحديث فيها حين يخلون لانفسهم ، يتركونها جانبا ، ويتحدثون بطريقة مختلفة حين يأتى الضيوف . والمسنون الذين تعودوا على كتم مشاعرهم وانتظار الاوقات المناسبة للحديث يختلفون عن الرجال الاصغر سنا ، اذ يصاب هؤلاء بنوع من الحمى ولا يقوون على كتم الافكار والمشاعر التى تملأ صدورهم ، خاصة فى موسم مثل هذا الموسم .

كانت هناك رغبة لان يتحدث بعض الرجال للمرة الاخيرة ، أمام الضيوف ، واذا كان الكثيرون من أهل الطيبة قد انتظروا بصبر فارغ مجيء الابناء من المدينة ، لكى يتحدثوا للمرة الاخيرة ، فى أمر السد ، متى يجب أن يقوم وماذا فعلوا من أجل قيامه ، وانهم لم يعودوا قادرين على الانتظار أكثر مما فعلوا ، واذا صبروا وتحملوا المسنين الماضية بصمت فلن يستطيعوا بعد اليوم احتمال ذلك ، وسوف يلجئون الى وسائل جديدة لاقتناع الكبار هناك فى المدينة ، بمدى القسوة التى يمتلكونها .

اذا كان أهل الطيبة قد انتظروا طويلا ، فقد غاب ظنهم تماما حين رأوا عصر ذلك اليوم سيارتين غريبتين تدخلان الضيعة . اما حين تعانق الآباء والامهات مع ابنائهم العائدين ، فقد طفت للحظات قوة الحب على قوة العتاب ، وجاشت الدموع فى العيون وغلبت جميع المشاعر الاخرى ، ونتيجة ذلك تراجعت الافكار والكلمات الغاضبة لتحل مكانها مشاعر المودة وكلمات الترحيب . والضيوف الذين لم يروا الطيبة قبل هذه المرة ، لم يروا فيها شيئا مختلفا ، ولم يحسوا بذلك الدوى الداخلى الذى يولده الجفاف . اما حين قابلتهم الابتسامات الواسعة والترحيب الحار فقد أحسوا بدفع داخلى وحسدوا هؤلاء الناس على هذا الرضى الذى يمتلكونه !

بهذه الطريقة تأجلت أمور كثيرة وحلت أخرى مكانها ، فالاشياء التى حملها الابناء من المدينة وزعت بعناية ، واختلى بعض المسنين لينصحو بعضهم أن يتصرفوا بحكمة ، ولكى يطلبوا من الشباب احترام الضيوف



مثلاً تعودوا دائماً ، دون اثاره لاية احزان أو مشاكل • وقالوا في أنفسهم : « سيبقى الضيوف يوماً أو يومين ثم يرحلون ، وبعد ذلك ~~سيوف تقلب الدنيا~~ على رؤوس هؤلاء الابناء العاقين ، الذين لا يعرفون شيئاً في الدنيا سوى ارسال بعض الحاجات في مواسم الجفاف ، وكان الطيبة أصبحت مأوى للمتسولين والجوع ، ويجب أن تبقى كذلك أما الوعود الكثيرة عن المياه التي ستندفق طوال أيام السنة ، أما عن الاسماك التي ستزرع في البحيرة ، عن القنوات التي ستمتد الى مسافات بعيدة ، فقد انتهى الامر كله ، ولم يبق الا صدى الكلمات يتردد كل بضع سنين ، شفقة أو حسرة على هذه البلدة التي تموت يوماً بعد يوم . هكذا كانت الساعات الاولى ، وهكذا كانت مشاعر الناس ، وابتداء الطيبة الذين أحسوا بفريزتهم ان كل شيء قد تغير في البلدة ، وان الايام التي يعيشها أهلها من القسوة الى درجة لم يكونوا يتصورونها ، ورأوا التغيرات العميقة التي دخلت في كل شيء يلتمخونه ، مشعروا انهم اذنبوا كثيراً وان أية كلمات تقال الآن لابد أن تكون عاجزة ولا تعبر عما تفيض به قلوبهم ، ولان الضيوف قد أتوا ، ولانهم تغادروا على شكل معين من التصرفات ، فقد فهموا من النظرات ، ومن الاشارات ، ومن الحركات من لمسات الايدي ، ان الطيبة تغل ولابد أن تفيض بشكل أو بآخر ، لكن هذه المشاعر تركت جانبا ، لان الضيوف لم يبق لهم كل شيء الا غريباً وطريفاً !

أما حين انعقد مجلس السمر فقد تركوا الحديث على الطيبة ، لان الضيوف جاءوا لهذه الغاية ، وما دلم الضيوف يريدون هذا ؟ فكان هذا ما حصل !

وأهل الطيبة الذين كانوا قادرين على التحمل في الغضب ، في اوقات معينة ، فقد كانوا قادرين أيضاً على الصبر ، وعلى الصبر الى وسائل لمواجهة الجوع والموت ، وحين يندمرون الصقيلين لم يبدوا في المواجهة ، وانقاذ ما يمكن انقاذه ، تتردد كلمة واحدة ، وكأنها كلمة النسيان : أين عساف ؟ ودون عناء كبير يتيسر على الكثير من المخاضات ان لا يحتسبوا في غمرة الحزن والجوع والتعب ، ومواجهة الموت ، ومن اجل ذلك ، على الحزن والجوع والموت ، تقلت كلمة بها خلة ، أقرب الى الدعابة ، يقول أحد الحاضرين ، ليتقلب على النار شقة العادق التي بدأت ولا يعرف كيف ستنتهي :

- فريد عساف : احضروا عساف فوجئنا اننا ميتون

. دخل عساف عصبيا مخطوف الوجه ، وبغمة لا تكاد تفهم ، التي التحية ، وجلس قريبا من الباب . وأهل الطيبة الذين تعودوا على عساف ، وقبلوا جنونه ، رفضوا بكثير من الاصرار أن يصطحب كلبه معه الى سهراتهم والى مجالسهم . وهذا الرفض الذى آذى عساف كثيرا ، قابله برفض أشد قسوة وأشد اصرارا ، حتى انتهى الامر الى ذلك الاتفاق الضمنى بأن يدخل عساف الى المجلس دون أن يصافح أحدا ، وان يبقى كلبه قريبا من الباب . وإذا كان عساف قد قبل هذه الشروط مكرها ، فان علاقته بمجالس البلدة وأحاديثها قليلة الى درجة ان الناس لا يرونه الا نادرا . أما اذا جاء ضيف الى البلدة من أجل الصيد ، فقد كان أول الذين يجب دعوتهم وحضورهم هو عساف ، وعساف الذى لا يحب حضور المجالس ، يكره أيضا هؤلاء الضيوف ، ويعتبرهم ، أغلب الأحيان ، ثقل شديدي البلادة والخور ، لكن مثلما علمته الطيبة ، كان مضطرا الى مصاحبتهم والى مجاملتهم ، ومن أجل ذلك كان يتحمل الكثير !

فى هذه الامسية ، وحين أتوا بعساف ، أحس ان الامر غير عادى . أما حين جلس قرب الباب واجلس كلبه الى جانبه ، فقد سمع أكثر من صوت يدعو الى صدر المجلس . وازاء رفضه ، نهض واحد من أبناء الطيبة القادمين مع الضيوف ، ومد يده يحيى عساف بحرارة أول الامر ، ثم يسحبه بقوة لكى يغير مكانه . استمر الامر بعض الوقت ، بين القبول والرفض ، الى أن اقترح أحد المسنين انتقال عساف وبقاء الكلب حيث كان .

ان فى حياة كل انسان لحظات من الخصوبة لا يدركها ، ولا يعرف متى أو كيف تأتية أو كيف تنفجر فى داخله . انها تندفع فجأة ، تعربد مثل الرياح أو مثل الامطار الغزيرة المناجثة ، وتغطى على كل شيء ، ومثلما تأتى فجأة تنتهى كذلك ، كأنها مياه غارت لتوها فى أرض رملية عطشى !

هذه اللحظات لا يخطط لها أحد ولا يدبرها أحد ، حتى لو أراد ، وعساف الذى جاء مكرها ، ليلتقى ببعض الوجوه التى لم يرها من

قبل ، وقد لا يراها مرة أخرى بعد أن تفادر الطيبة ، والذي أغضبته كلمة احد المسنين حين طلب منه أن يبقى كلبه عند وصيد الباب ، وجد نفسه فجأة في عالم من الوجد وأقرب ما يكون الى التجلي ، اذ ما كاد يسأل عن الصيد ، وعن عدد الطيور التي صادها ذلك اليوم ، وكيف كان الموسم بصورة عامة حتى أحس بالاختناق ، وتمنى لو انه لم يات ، وتمنى أكثر من ذلك لو يستطيع مغادرة المجلس . لكن كان يعرف أهل الطيبة ، يعرف مقدار الود القاسى الذى يكتونه له ، ويحس ان رابطة عمرها مئات السنين تربطه بكل ما حوله من أرض وبشر وأشجار ومياه ، وان هذه الرابطة تكون أشد وأقوى حين تمر سنة صعبة مثل هذه السنة التى تمر على الطيبة .

كان مصمما ، أول الامر ، أن لا يتكلم ، فاذا حاصروه بالاسئلة ، ولم يجد مجالا للهرب ، فلا أقل من بضع كلمات يتولها ، لكن فجأة امتلأ بشعور الالفة والتحدى معا ، وأحس أن قلبه يخفق بضربات سريعة أكثر مما تعود حين يكون فى مثل هذا الموقف ، وقرر أن يفعل شيئا لم يفعل من قبل .

يتذكر هو نفسه ، ويتذكر كل من كان موجودا ، انه لأول مرة فى حياته ، قرر أن يخوض معركة لم يخض مثلها من قبل ، ورغم ما يقال دائما من أن حياته بدأت معركة متصلة ، اذ ما كادت الاسئلة تنهال عليه ، وكلها عن الصيد ، حتى صرخ بتحد :

— تعال .. تعال يا حصان !

وانتفض الكلب فجأة ، ومثل حية ملساء ، انسل ليجلس عند أقدام عساف .

كانت الحركة مفاجأة ، لم يتوقعها أحد ، وللحظات خيمت الدهشة وعم الذهول ، والمسنون الذين يملكون ، أغلب الاحيان ، الحق بالامر والنهى . أحسوا ان صوت عساف ، وهو يدعو كلبه ، غير مألوف ، ولا يمكن مقاومته . تبادلوا النظرات فيما بينهم ، ونظروا الى عساف ، لكن لأول مرة فى حياتهم الطويلة الحافلة يكتشفون فى عينيه بريقا قاسيا وحشيا ، ودون وعى أو ارادة ، تراجعت كلمات الاعتراض لتحل مكانها هزات الرعوس تعبيرا عن الاسف وشيء من العتاب .

لم ينتظر عساف ، اعتدل فى جلسته ، أجال نظرة طويلة فى وجوه الناس الذين خيم عليهم الصمت ، وبطريقة مليئة بالمحبة والحنان معا ، امتدت يده الى الكلب ، مسد على ظهره أكثر من مرة ، ودون أن ينظر الى أحد ، وكأنه يخاطب نفسه ، بدأ :



— ماذا تظنون يا أهل الطيبة ؟ هل تظنون ان هذه السنة مثل السنين القاسية التي مرت عليكم ؟ هل تظنون انكم ستواصلون الحياة حتى تأتي الامطار مرة أخرى ؟ ان من يظن ذلك أقرب الى الجنون .  
توقف لحظة . عب نفسا عميقا من سيجارته ، وتطلع في وجوه الرجال مرة أخرى ، ثم تابع :

— قلت لكم ألف مرة : لم يبق بيننا وبين الموت الا ذراع ، وهذه الذراع هي الصيد الذي نستطيع ان نوفره حين تأتي الامطار مرة أخرى . قلت لكم مئات المرات وانتم لا تسمعون هذا الكلام ، وبدل ذلك تزدادون خماسة يوما بعد يوم . قلت لكم اتركوا اناث الحجل للسنوات القادمة ، انها رزقنا الباقي . قلت لكم : وفروا الخراطوش ولا تفزعوا الطير ، وعندها سيأتي اليكم بدل ان تذهبوا اليه ، لكنكم يوما بعد آخر تزدادون عنادا وتحديا . قلت لكم انقلوا من النبع حمل حمارين أو ثلاثة حمير وارموا بها في الخوابي القريبة ، ثم اربضوا هناك حتى تأتي الطيور ، فامتلات وجوهكم بالابتسامات الساخرة وقلتم عساف انهبل ، لانه يطلب منا ان نبذر ما تبقى لنا من الماء ونرميه في الصحراء . والآن تأتون بهؤلاء الافندية وتظاهرون بالنبل والكرم وتطلبون من عساف ان يصطحبهم الى الصيد ، وان يجعلهم يصيدون ا ماذا يستطيع ان يصيد هؤلاء أو غيرهم ما دمتم ملأتم الدنيا بالطلقات المجنونة تبذرونها في الهواء ، حتى لم يبق طير من طيور السماء أو حيوان من حيوانات الارض الا وسمع عددا لا حصر له من الطلقات ؟ وحرك يديه بطريقة يائسة ، وتطلع في وجوه الضيوف ، ثم تابع بدهجة جديدة :

— يا سادة .. كان الحجل يصل الى أبواب البيوت . كانت الغزلان والإرانب تملأ السهل كله ، كانت ممرات الترغل كثيرة الى درجة ان عساف نفسه يختار الى أين يذهب وأي الممرات يفضل . هكذا كان الامر في الاوقات السابقة . وأهل الطيبة بدل ان يحافظوا على هذه النعمة ، لم يتركوا أي ابن عاهرة ولمسافة ألف كيلو الا ودلوه على الطيبة اعذروني .. أنا لا أقصد أي واحد منكم . انتم على عيونا وعلى رؤوسنا ، لكن أقصد الصيادين الآخرين الذين يأتون من كل مكان ، وكان ليس في الدنيا سوى الطيبة ، وهؤلاء الذين يأتون لا يعترفون سوى شيء واحد : القتل . كانوا يقتلون كل ما تقع عليه أعينهم . كانوا يقتلون اناث الحجل قبل ذكورها . لان الذكور وهي تجفل وتطير من الخوف ، كانت تخلف في قلوب هؤلاء الصيادين خوفا كبيرا ، وبعد ان

يستعيدوا شجاعتهم تطير الاناث فيضربونها • والشئ نفسه يفعلونه  
بالغزلان والارانب وكل الحيوانات الاخرى ، وحين يعسودون محملين  
بالصيد لا يكتفون بأن يعودوا الى هنا مرة أخرى ، انهم يدلون أصدقاءهم  
وأصدقاء أصدقاءهم ، الى عاشر جده ، ويحضرون معهم أنواعا من السلاح  
لا يتصورها عقل ولا يقاومها صخر ، وبهذه الطريقة ، وسنة بعد أخرى  
أقبرت الطيبة • والآن تريدون من عساف أن يستولد لكم الطيور  
والحيوانات ولا أعرف أية عفاريت أخرى ؟ ماذا يستطيع عساف أن  
يفعل ؟ هل هو مسيح جديد ؟ هل هو الذي يبيض ويفقس ؟ •  
ومن جديد امتدت يده لتستقر على ظهر الكلب • وينظر الى الوجوه  
التي اعترتها الدهشة وخيم عليها الصمت :

— لم يخلق الصيد للأغنياء أو الذين يقتلهم الزهق والشبع ، لقد  
خلق للفقراء ، وللذين لا يملكون خبز يومهم ، وعساف الذي قضى  
حياته كلها في البرية لا يصيد في مواسم الخير الا ما يملأ معدته ومعدة  
هذا الحيوان ، أما في مواسم الجفاف ، ولكي لا يموت الناس في  
الشوارع ، فيمكن أن يكون الصيد حلا ، كما هو الحال ونحن نستبدل  
خبز القمح بخبز الشعير ، لكن لا أحد يفهم في الطيبة وفي غيرها من  
المسن والقري ، أن الانسان في هذه الايام يمتلك روحا شريرة لا تمتلكها  
الذئاب أو أية حيوانات أخرى ، ولهذا السبب نواجه اليوم الجوع ،  
وسيكون الجوع غدا أشد وأصعب • اننى أرى ذلك كما أراكم الآن ،  
واننى أخاف من الغد أكثر مما أخاف اليوم الذى أعيش فيه • وهذا  
ما صنعناه بأيدينا ! •

وبطريقة أقرب الى الفظاظه واليأس تحرك عساف يريد أن ينهض  
ليمشى ، واذا كان كلامه قد خلف جوا متوترا ، شديد الحرج ، خاصة  
لاهل الطيبة تجاه ضيوفهم ، فإن حركة غير عادية برت في الجميع •  
كانت حركة سريعة غامضة ، وفيها ذلك الاحتجاج اللئيم الذي يشيع  
الاعتراف الضمني أن ما قاله ذلك المجنون هو الحقيقة ذاتها ، ولا يمكن  
لاحد أن ينكرها أو يتنكر لها ، وإن ما قاله كان يجب أن يقال !  
قال نعيم ، وقد جاء مع الضيوف من المدينة ، وتحدث معهم كثيرا  
عن الصيد في الطيبة ، وعن عساف ومقدرته الفائقة في الصيد ،  
وتحدث أيضا عن غرابة طبعه ، قال ليخفف من كلام عساف :  
— ما قلته ، يا عم عساف ، هو الحقيقة ، لكن أنت تعرف أى جنون  
يعيش في قلب الصياد •

قال أحد الضيوف ، بلهجة مستسلمة ، وكأنه يدافع عن نفسه :

- لقد انقطع الصيد فى كل المنطقة ، وليس فى الطيبة وحدها !  
ولاول مرة يفهمه عساف ، كما لم يفعل ذلك فى حياته الا مرات  
قليلة ، وقال بصوت ملىء بالسخرية :

- ومن قال ان الطيبة وحدها يسكنها المجانين !  
ولكى تفهم كلماته جيدا اُضاف :

- لقد وصل الجنون الى كل مكان . وهذه الاسلحة الجديدة ما كان  
لها أن توجد ، حتى لو صنعها بعض المجانين فى الاماكن البعيدة ،  
ما كان لها أن تصل ، أو أن تستعمل فى الصيد . انها تقتل كل  
شيء ولا تبقى شيئا !

ومن جديد عاد الى لهجة السخرية :

- اذا كانت المناطق الاخرى تنعم بالمياه والخضرة ، وتحصل على  
ما تريده دون عناء ، لان منها الحكام والعسكر ، فان الطيبة بلدة  
مسكينة ، اذا أمطرت الدنيا وجدت لقمتهما ، واذا أمحلت مات الناس  
جوعاً !

ومرة أخرى تغيرت لهجته :

- فيما مضى . قبل سنوات كثيرة ، كنا نحارب الجوع ونغلب  
عليه بالطيور التى تأتى ، بالحيوانات التى تقترب من البلدة ، وكنا  
نقاوم الجوع حين نأكل الجراد والجسرابيع ، أما هذه الايام فلم يبق  
شيء ، فاذا استمرت الحال هكذا فلن تمضى فترة قصيرة حتى تصبح  
الطيبة ماوى للبوم والوطايط !

قال ضيف آخر بلهجة خجولة وهو يستعرض صورة الطيبة :

- سمعت أن سدا سيبنى عندكم ، وان هذا السد سيروى مساحات  
واسعة ، أليس كذلك ؟  
قال أحد المستن :  
.

- مثلما سمعت ، يا ولدى ، سمعنا . الفرق بيننا وبينك ، اننا  
سمعنا هذا منذ وقت طويل ، ولقد قال لنا ذلك الكيسار فى المدينة ،  
لكن من يدري !

وضحك الرجل بنوع من السخرية وهز رأسه بأسف .  
قال مختار الجهة الشرقية :

- أتركوا الآن هموم القرية ، المهم أن ترتبوا مشوارا مناسباً للصيد ،  
وهؤلاء الكرام لن ينسوا الطيبة ، ولن يوفروا أى جهد من أجل اقناع  
المستولين لبناء السد بسرعة !



وتحول الجو فجأة • هجم أحد القادمين على عساف ، وقبله على رأسه ، وقال بطريقة مغرية :  
- ستكون قائد الحملة يا بطرس ، وسوف نعود بصيد وفير غدا !  
قال أحد المسنين مازحا :  
- يجب أن تصيدوا صيدا كثيرا • ان الصيد وحده يمكن أن ينقذ الطيبة من الموت !  
وتحلقت المجموعة ، بمن فيهم الضيوف ، حول عساف ، وبدأ  
الاعداد لمشوار الغد •

قال عساف ليؤكد اتفاق الليلة الفائتة :

- لو ذهبنا الى الحجبل فسوف نرجع بأيدي فارغة • قتلوا الحجبل لمسافة ألف كيلو ، اما الكدري فقد تنكح ، أصبح يخاف من الرجال والاشباح ، ويطير من مسافات بعيدة • لذلك يجب أن نذهب الى أقصى مكان ، وما دام معنا سيارات فسوف تطير كل مجموعة للآخرى • توقف قليلا وأجال عينيه في الوجوه حوله • كانت العتمة تملأ كل شيء ، ولا تبين من خلالها سوى برقات سريعة للعيون أو توهج السجائر المشتعلة حين تمصها الشفاه قال عساف وهو يتحرك :

- أنتم وحظكم • • أنتم وشطارتكم !

في غبشة الليل المتأخر كانت رياح ناعمة تملأ الكون وتخلف نوعا من البرودة اللذيذة ، والرجال الذين انحشروا في السيارات كانوا أميل الى الصمت والتأمل • صحيح أنهم تبادلوا بعض الاحاديث السريعة ، لكنها كانت في مجملها للتغلب على الصمت والسأم ، وفي محاولة لخلق تحريض متبادل وبدافع الامنيات قبل أي شيء ، وعساف الذي جلس في سيارة الجيب ، وكانت في المقعدة ، كان شديدا الصمت ، ولم يجب على الاسئلة التي وجهت اليه الا بكلمات قليلة ، كان يكتفى بأن يقول :

- اصبروا وسوف نرى !

بين فترة وأخرى ، ولأن عساف هو الذي يعرف الطريق ، كان يحدد ويصدر الاوامر :

- يمين • • •

- يسار • •

- مرة أخرى الى اليسار !

والسائق الذي يستجيب بطاعة ودون اعتراض ، كان يخطئ بعض الاحيان ، فبدل أن يستدير الى اليسار ، كما طلب منه عساف ، كان يستدير الى اليمين ، لكن ما يكاد يفتن الى خطئه حتى يستدير بقوة ليأخذ الاتجاه الصحيح • والسيارة الخلفية ، التي كانت تسير على مسافة بعيدة نسبيا ، لتتنجب الغبار الكثيف المتطاير من الجيب ،

كانت ترى فى كل حركة ، فى كل التفاتة ، مفاجأة أو صيداً ، وكانت تتوقع باستمرار شيئاً . لكن عساف الذى عرف هذه الارض يشبكل جيد ، كان هادئاً . وحتى سأل أحد الجالسين فى المقعد الخلفى ان كان الوقت قد حان لاعداد البنادق ، اجاب بعصبية :

- الصبر مفتاح الفرج . . اصبر !
- ألا يحتمل أن نجد أرنباً أو ذئباً ؟
- وهل بقيت أرانب ؟
- أتصور أن هذه الارض أرض أرنب !
- لا تتصور !

وانقطع الحديث مرة أخرى . لم يكن يسمع خلال هذا الصمت سوى الدوى الصاخب لسيارة الجيب ، ولم تكن ترى الا المساحة التى يولدها النور القوي المنبعث من أضوائها .

انها احدى المرات القليلة التى يتوغل أبناء الطيبة وضيوفهم الى هذه المسافة البعيدة فى الصحراء ، ومع كل ميل جديد تتغير طبيعة التربة ويتغير الهواء . فالمنطقة المحيطة بالطيبة متنوعة التضاريس ، متفاوتة أشد التفاوت ، اذ تبدأ ببعض الصخور السوداء ، وكأنها حدود الطيبة من هذه الناحية ، ثم تليها الكثبان الترابية التى تتخللها بعض الصخور الكلسية ، ثم الارض الخصبة الشديدة التنوع . وتتساوى فى هذه الارض قطع الحجارة الصغيرة مع التربة . وتظل هكذا ، مع تفاوت بسيط ، مسافة طويلة ، حتى يقطعها واد ، وهذا الوادى يصبح خلال فصل الشتاء مجرى للسيول والأمطار ، ولا يكاد الانسان يتجاوزه ، وينعطف فجأة ناحية الغرب ، ولمسافة ميل أو اثنين ، حتى تبدأ الصحراء تظهر . تبدأ الصحراء أول الامر بخجل ، وكأنها تكونت فى التو واللحظة ، اذ لاتزال تحمل بعض ملامح الارض التى تجاورها ، لكن تدريجياً تتغير الارض ، لتصبح نسيجا واحداً متشابهاً وأقرب ما يكون الى راحة اليد ، من حيث الاستقامة ، مع التواءات صغيرة ومتفرقة ، وكثبان رملية تظهر وتغيب ، بين فترة وأخرى .

حين بدأت الصحراء ، قال عساف بصوت واضح :

- الذين على الشبايك يمكن أن يملأوا بنادقهم ، هنا يمكن أن نجد أرنباً ضائعاً لم تصله بعد طلقات المجانين !

وبطريقة آلية ، شديدة الاستجابة ، سمعت أصوات البنادق وهى تفتح ، ثم سمعت أصوات الخرطوش وهى تستقر . قال عساف ، وهو يلتفت الى الخلف ، ويكلم الرجل الذى جلس فى وسط المقعد الخلفى :



- حين نصل الى مكان الصيد الحقيقي سوف تجلس مكاني .. هنا !  
سأل نعيم ، وهو يسوق السيارة ، وقد شعر بالخوف أن يتخلى  
عساف عنهم في هذه الصحراء الرهيبة :

- وأنت .. يا عم عساف ؟

لاول مرة ، منذ بداية الرحلة ، ابتسم عساف ، ونظر الى السائق ،  
ثم الى الرجال الذين يجلسون في المقعد الخلفي . كانت بداية أضواء  
الفجر تنتشر بهدوء وتتسرب الى داخل السيارة ، ويصد أن تملئ من  
وجوههم قال :

- أنا وكلبي على الارض .. وأنتم في السيارة .

سأله أحد الثلاثة ، وكان جالسا في الخلف :

- وكيف سنصيد ؟

قال عساف بسخرية :

- السيارة هي التي تصيد !

ولما أحس أن أحدا لم يفهم كلمة أضاف بلمهة مختلفة :

- بعد أن طارد الصيادون الطير وأتعبوه بدأ يخاف من كل شيء ،

ولا يمكن أن يصاد الآن الا بالسيارة .

توقف قليلا ، تطلع حواليه ، وقال بلمهة جديدة :

- حين ترون رفا من الكدرى أو القطا يجب أن تغيروا عليه بأقصى

سرعة ، وقبل أن يطير كله ، قبل أن يبتعد ، يمكن أن تأخذوا منه

بعض الطيور !

سأل نعيم . ومقود السيارة يضطرب بين يديه حين أمسك البندقية :

- وأنت يا عم عساف ؟

نظر اليه عساف نظرة مشجعة وأجاب :

- لا تخف ، سنبقى أنا والكلب على الارض ، والذي يفلت منكم ،

الذي يطير باتجاهي ويقترب ، سوف يكون نصيبى !

بعد فترة من السير ، ولما أحس عساف انه وصل المكان المناسب ،

نظر الى الافق نظرة دائرية واسعة ليتأكد . وبحركة من يده ، مع غمضة

غير واضحة ، طلب من نعيم أن يقف . ظن الجميع أن عساف رأى

صيда ، لان الوقفة السريعة التي وقفها نعيم خلقت شعورا قويا بالماجاة

لكن عساف وهو يفتح الباب ، ويطلب من الكلب النزول ، قال بهدوء

وكأنه يلقي موعظة :

- يجب أن نبقى في دائرة ، وهذه الدائرة قد تتسع وقد تضيق ،

لكنها تبقى دائرة ، والطير لن يبعد كثيرا ، ما عليكم الا أن تعرفوا

كيف تساعدون بعضكم ، ويجب أن يفهم جماعة السيارة النائية هذا .  
بعد قليل وصلت السيارة الثانية ، ووقفت بهدوء الى جانب الجيب ،  
ولكى لا يترك عساف الامر غامضا ، قال بصوت عال :

- سنبقى أنا والكلب على الارض ، وأنتم ، كل فى اتجاه ، تطاردون  
الطير ، والكدرى فى مثل هذا الوقت لا يخاف وهو بطيء الطيران ،  
ويمكن أن تصل السيارة الى وسط الرف ولا يطير . واذا كنتم صيادين  
فسوف يكون الصيد كثيرا !  
وأضاف كأنه يخاطب نفسه :

- أعتقد أن أحدا غيرنا لم يصل هذا المكان منذ فترة طويلة ، وما  
دام الطير غير مضروب فإنه لا يجفل ، وسيكون الصيد كثيرا !  
قال أحد أبناء الطيبة :

- الأفضل أن تبقى معنا يا أبا ليل . السيارة واسعة ويمكن أن  
تصيد على مراحل .

- الأفضل أن أبقى على الارض ..

توقف لحظة ثم أضاف :

- والآن يجلس هنا .

وأشار الى الشخص الذى يجلس فى وسط المقعد الخلفى ، يطلب  
منه أن يتحول ليجلس فى مكانه !

وبعد فترة صمت قصيرة ، ولكى لا يترك مجالا لاية مناقشة ،  
تابع :

- الأفضل أن تكونوا فى السيارات ، وأن تساعدوا بعضكم : كل  
سيارة تطير للسيارة الثانية ، وأنا على الارض ، لأننى بهذه الطريقة  
أعرف كيف أصيد !

وخلال بضع دقائق ، وبتوضيحات عديدة ومتزايدة ، خاصة من  
أبناء الطيبة الذين يرافقون الضيوف ، وبمشاركة قصصيرة ، لكنها  
حاسمة وشديدة الوضوح من عساف ، تم الاتفاق على كل شيء ، وقبل  
أن تتحرك السيارتان ، كل واحدة باتجاه ، مد نعيم الى عساف بعلمة  
من الخرطوش ، وأطفأ أنوار السيارة .  
وبدأت رحلة الصيد !

هواء الصباح الطرى يملأ الكون بنعومة خائفة أقرب الى اللذة الراحشة ، وهذه اللذة تتسرب الى العظام مباشرة . أما المدى النسيج ، بلا نهاية ، فيولد رهبة خاصة لا تولدها الا حالات ولحظات معينة فى الكون والطبيعة . الصحراء المترامية ، بذلك اللون الرصاصى فى غبش الصباح ، لا يماثلها الى البحر . أما الشعور بالضالة والانتها ، ثم الاندماج مرة أخرى ، فلا يتولد الا فى عصف الرياح المجنونة وفى الامطار الغزيرة التى تبدأ لكى لا تنتهى وشعور الظلمة الذى يلف كل شىء ، ويجعل المخلوق ، خاصة اذا كان بشرا ، ضئيلا متلاشيا ، فانه يطفى على الانسان فى الصحراء أكثر مما يطفى فى أى مكان آخر ، حتى يشعر الانسان انه متروك ووحيد ، الى درجة لا تخطر على باله . ومن شعور الوحدة يتولد الخوف والرغبة والانتظار ورغبة التخفى والصراخ والاتحاد مع شىء ما وآلاف المشاعر الاخرى التى تعجز عنها كل الكلمات .

حتى فى الاوقات التى يكون الانسان مع الآخرين ، يحس انه فى الصحراء وحيد ، وانه يواجه عدوا أقوى منه آلاف المرات ، وهذا العدو لا يمكن أن يقاوم ، لكن من الضرورى مصادقته ، أو الاحتيال عليه والاذعان الى شروطه .

هكذا كان شعور الصيادين وهم يواجهون هذا العالم لأول مرة . حتى الذين جاءوا برغبة لا تقاوم للصيد ، وضمن أية شروط ، داخلهم الخوف واستقرت فى قلوبهم رهبة غامضة ، « ماذا لو ضعنا ؟ » ماذا لو غرزت السيارات فى الرمال الصاخبة الملعونة ؟ ، « وهذه الطيور .. ألم تجد مكانا غير هذا المكان البائس لتعيش فيه ؟ » .

فى مثل هذه الظروف يصبح الانسان ، مهما امتلك من القوى ، ومهما عربت فيه التحديات ، أقرب الى الضالة . يتمنى لو كان أكثر عقلا ولم يدخل هذه التجربة . حتى الصيد فى هذا المكان الفسيح الموحش له طعم مختلف ، يصبح أقرب الى المغامرة الخطرة يمارسها الانسان برغبة اثبات القدرة والتأكد من الوجود أكثر مما تحصل من لذة المطاردة والانتظار والانقضاض . فى الصحراء يمتلك الانسان



صفات تنفجر في داخله فجأة ، يمتلك صفات التواضع ومحاولة التعرف والصبر ، ويتطلع الى كل ما حوله بحيرة أقرب الى التساؤل الحائر .  
أما اذا انفجرت رفوف الكدرى كما تنفجر القنابل بين الارجل ، فان نفس الانسان يصبح مخلوقا آخر ، يتحول فجأة الى أبله يطارد ظله ، الى انسان يعارك نفسه ويريد أن يقضى عليها قبل أن يقضى على الغير ، فيغادره الخوف وتزول منه الرهبة ويتحول بين لحظة وأخرى الى وحش من نوع خاص . فاذا تجاوز هذه اللحظة ، ومضى عليها زمن طويل ، فانه ينظر اليها بنوع من الاعجاب يصل حد الغرور ، ويتساءل بزهو : « هل دخلت هذه التجربة وخرجت منها سالما ؟ » . « هل يشبه صيد الصحراء أى صيد آخر فى الكون ؟ » .

هكذا بدأت الرحلة ، وأية محاولة لاستعادة تلك اللحظات تقف عاجزة بائسة أمام هذا الملكوت الشامخ الذى يملأ كل شيء .  
فالسيارتان حين بدأتا الحركة تملك كل من فيهما خوف مفاجيء ، ولم يستطع أى انسان من البشر السبعة الذين كانوا محشورين فيهما أن يقول شيئا ذكيا أو أن يتصرف تصرفا واضحا مقصودا .  
كانت حركة السيارتين بطيئة أول الامر ، وبلا اتجاه ، وكان السائقان ، وكل واحد فى أى من السيارتين ، ينظر الى الآخرين ، ينظر الى الذين حوله وينظر الى السيارة الأخرى ، ولقد امتلأ بمشاعر الخوف والانتظار ، وتملكته فى لحظات معينة مشاعر الندم انه جاء الى هذا المكان والى هذا النوع من الصيد . ورغم ان المسافة بين السيارتين لم تكن بعيدة ، ولا تزيد عن بضعة مئات من الامتار ، فان حالة أقرب الى العجز سيطرت على الجميع فى الوقت الذى ظل عساف مزروعا فى الصحراء وشبهه يبتعد ويختفى كل لحظة . أما كلبه الذى كان واضحا خلال بعض الوقت ، فقد أخذ يبتعد ويصغر حتى تلاشى تماما .

فى احدى اللحظات العمياء ، وعلى غير انتظار ، انفجر رف من الكدرى ، بدا فى عتمة النور الاولى أشبه بالطيور الاسطورية . كان لانفجاره دوى هائل ، وظل هذا الدوى وقتا طويلا ، لا يملأ الاذان والعيون فقط . بل يستقر فى القلوب ويسيطر عليها . أما الطلقات الخائفة المرتجفة التى توالى ، الواحدة بعد الأخرى ، فلم تخلف شيئا سوى موجة من الدخان الازرق تلاشى تدريجيا مع رياح الصباح .  
انها المفاجأة الاولى ، واذا كان كل واحد من الصيادين الذين كانوا فى سيارة الجيب ، والذين التقوا بهذا الرف ، قد امتلأ اصرارا وتملكته

مشاعر الخيبة ، فقد قال الجميع كلمات بائسة لتبرير الفشل . أما صيادو السيارة الاخرى فنظروا بحسرة وحقد ، وقرروا في أعماقهم أن لا يكونوا خائبين بهذا المقدار . والكلمات العرجاء التي تبادلها ركاب السيارة الجيب ، فيما بينهم ، لتبرير هذه الخيبة ، قابلتها شتائم وتحديات من ركاب السيارة الاخرى !

انها التجربة الاولى ، ومثل كل التجارب الفاشلة ، وفي جميع المجالات ، يتولد في الانسان نوع من الاصرار أقرب ما يكون الى الرعونة . اذ ما كاد ذلك الرف يتلاشى في الافق مبتعدا حتى أسرع السيارتان معا ، وخيم التحفز الحذر على الجميع . امتدت البنساق أكثر من السابق ، وبرقت العيون بالحقد .

وأبناء الطيبة الذين عرفوا أنماطا كثيرة من الصيادين ، وكانوا شديدي الحذر والدقة في أن يطلقوا أية كلمات أو أوصاف لتقييم الصيادين الآخرين ، كانوا متأكدين من شيء واحد : من لا يعرف الصحراء ، من لم ير هذا الطير ، لابد أن يصاب بالخيبة بعد الرحلة الاولى . . لم يقولوا هذا الكلام مباشرة ، لكنهم كانوا واثقين من هذه القناعة ، خاصة وان أغلب الضيوف الذين جاؤوا ، وادعوا كثيرا ، وأسرفوا في الحديث عن الطيور التي صادوها ، وعن الاماكن التي ذهبوا اليها ، اثبتت التجربة شيئا مختلفا ، اذ كثيرا ما ادعى الصيادون أن جبال الطيبة أقسى من أية جبال رأوها ، وان جبل الطيبة ملعون الى درجة لم يروا حجلا آخر مثله . كانوا يقولون ذلك حين يصعدون الى الجبال . أما اذا ذهبوا الى ممرات الترغل ، وعادوا بصيد قليل ، فكانوا يعزون ذلك الى أسباب وهمية وأقرب الى الغباء . . . . . في هذه الصحراء الفسيحة ، هذا الطير الذي يروونه ينفجر أمامهم ويشير استفزازهم فلا يعرفون أية أكاذيب يمكن أن يقولوها لتفسير هذه الخيبة ؟ ولكنها عادة من عادات الصيادين حين يندفعون برعونة رائدة الى التحدى . ثم التبرير وأخيرا الى الكذب .

بعد الرف الاول . طار رف ثان . ومثلما واجهت سيارة الجيب عددا من الرفوف وطار بعضها حول السيارة ، وكأنه كان داخل قفص ثم انفلت فجأة ، فان السيارة الاخرى قابلت عددا مماثلا ، وربما أكثر قليلا . واذا كان لصيادي هذه السيارة بعض المعاذير ، حول ضيق الشبابيك ، وعدم امكانية التحرك بسهولة ، فان صيادي سيارة الجيب كانوا أقل قدرة على التبرير .

كانت السيارتان ، وهما تبحثان عن دائرة لتدورا فيها ، تحتلثان بنوع

من الحرج أقرب الى الخجل ، وفى بعض اللحظات أقرب الى الخوف .  
لبعد أكثر من ساعة ، وبعد أن طارت عشرات الرفوف من الكدري ،  
وكانت الحصيلة ثلاثة طيور فى الفولكس فاكن ، وطيرين فى سيارة  
الجيب ، تملكيت الجميع رغبة فى توسيع قطر الدائرة ، فى محاولة  
لاكتشاف مجال واسع والعودة بصيد أوفر . كانوا يشعرون بنوع من  
الخجل ، وكان كل واحد متأكدا انهم لو عادوا الى عساف بهذه  
الحصيلة ، بعد كل الطلقات المجنونة التى ملأت الفضاء ، فسوف  
يسخر منهم . وهذا الشعور لم يقتصر على ركاب سيارة واحدة ، أو  
على واحد من الصيادين فقط ، كان شعورا ضمئيا صامتا ، لم يستطع  
أحد أن يقوله ، لكن كل واحد تصرف بدافع منه وتحت تأثيره . حتى  
الرغبة أو الكلمة ، التى يقولها أى واحد فى الذهاب الى هذا المكان ،  
أو ذلك لم تكن تجد اعتراضا من أحد . كان الجميع يمتلئ خوفا ،  
خاصة وان كل واحد قدر أن عساف قد اصطاد مئات الطيور !

هذه المشاعر رغم قوتها وسيطرتها الغامضة ، فان مشاعر أخرى  
كانت ترفع رأسها بين لحظة وأخرى : الخوف من الصحراء ، والتيه  
فى هذا البحر القاسى الذى ليس له بداية وليس له نهاية !

حين ارتفعت الشمس فى السماء بضعة أذرع ، وارتفعت معها  
الحرارة وارتفع الغبار ، شعر الجميع برغبة اللقاء مرة أخرى ، مهما  
بدا هذا اللقاء قاسيا مريرا ، خاصة وان عساف كان قد نبههم ان  
الكدري مع تقدم النهار يرحل ، وانه يذهب الى أماكن بعيدة بحثا عن  
الماء والطعام ، وان الصيد خلال النهار من الصعوبة وعدم الجدوى الى  
درجة كبيرة .

وبطريقة غامضة مليئة بالتردد بدأت السيارتان تتجهان الى منتصف  
الدائرة . واذا كان لكل مكان فى الدنيا دائرة ، ولها منتصف ، فان  
الصحراء ملعونة الى درجة الرجم ، لان كل ذرة منها دائرة ، ولان كل  
مكان منتصف الدائرة . ومع ذلك ، وبمعرفة أبناء الطيبة باتجاسم  
الرياح ، وتذكركم أن ريحا غسرية كانت فى بداية الرحلة ، بدأت  
الدائرة تضيق تدريجيا ، وبعد ساعة من البحث ، ومن النظر المدقق ،  
رأت سيارة الجيب زوالا بين السواد والزرق ، ودون تردد قال أحد  
أبناء الطيبة :

— عساف .. هذا هو عساف !

وبلهفة أقرب الى الوجد ، ودون تساؤل أو انتظار ، اتجهت السيارة  
نحوه ، وبعد دقائق كانت السيارة الأخرى قد وصلت .

كان عساف منبطحا على الرمل ، والكلب قريب منه ، وكانت البندقية ملقاة الى جانبه ، وكأنها لا تعنيه . كان يعيث بالرمل ويبتسم ابتسامة خفيفة ، أما الطيور التي اصطادها فقد كومها مثل تل صغير الى جانبه ، وكانت مناقيرها باتجاه واحد !

حين نظروا الى تل الطيور أصيبوا بذهول حقيقى . كانت بالنسبة لهم تلا مستحيلا ، رقما مستحيلا ، أما حين بدأوا بانزال الطيور من السيارتين فقد نظر اليها عساف بدهشة أقرب الى الاستغراب ، لكنه بسرعة ملم دهشته ، وقال بطريقة أبوية للتخفيف عنهم :

- الصيد فى السيارة يحتاج الى التعود ، والرفوف التي كانت تطير من عندكم كانت تأتي الى هنا !

أما حين سأله أحد الضيوف عن عدد الطيور التي صادها فقد قال بتواضع :

- حوالى العشرين . . لم أعدها .

ولم يسأل عن العدد الذى صاده ، كان همه الاساسى أن يتأكد اذا قابلوا رفوفا كثيرة أم لا ؟ واذا كانت قريبة أم بعيدة ، وهل ضربت من قبل أم انها طارت بعد أن وصلوا اليها .

عند هذا الحد كان من الممكن أن تنتهى رحلة الصيد ، ولو ترك الامر لائناء الطيبة أو لعساف لاقتراح عليهم أن يعودوا ، وإلى جانب صخرة فى الوادى الذى اجتازوه يمكن أن يستريحوا . وأن يأكلوا . وكان من الممكن أن يقال ان هذا الصيد كاف ، وسوف تنظم رحلة صيد ثانية، فى مرة أخرى . لكن الامور ، أغلب الاحيان ، تسير بطريق لا يقدره الانسان ولا يتوقعه ، واذا كان الضيوف هم الذين يحكمون ، وهم الذين يقررون ، فان اهل الطيبة امتلكوا خلقا رفيعا بحيث لا يمكن أن يفصحوا عما يريدونه مباشرة ، وعساف الذى قال مجاملة ولكى يبعد أية امكانية للبقاء :

- الصيد انتهى ، فمنذ الان وحتى الغروب ، لن نجد رفوا واحدا ، وبعد أن تبادل ابناء الطيبة النظرات فيما بينهم . ومع عساف ، نظروا فى وجوه الضيوف ، ثم اقترح أحدهم اقتراحا وجد هوى عند الضيوف دون تردد :

- يمكن أن نذهب الآن حيث يريد عساف ، وبعد أن نتغسل ونستريح نقوم بمشوار صغير قبل الغروب ، وبعدها نعود الى الطيبة .



لم تكن الجلسة ، فى الوادى ، تحت الصيخور ، مريحة ، اذ رغم رطوبة المكان ، فقد كانت ريع الصحراء شديدة اللفح والحرارة ، وكانت تحمل معها ، بين فترة واخرى ، ذرات من الرمال تسب وتكوم على المنحدرات الواطئة ، غير المنتظمة ، والتي تشكل مجرى السيول أيام الشتاء .

فى هذه الجلسة ، والتي شرب خلالها الجميع ، وتحدثوا عن أشياء لا حصر لها ، كان عساف فى البداية أقرب الى الصمت ، وفى المرات القليلة التى تكلم ، تحدث بشكل غير مفهوم ، وكأنه يحدث نفسه . اما عندما سئل عن الحيوانات التى صاهاها ، وفى أية أماكن ، فقد اكتفى بأن يقول :

- ما فائدة الحديث عن الاشياء الماضية ، ما دام الانسان غير قادر الآن على أن يصطاد أى حيوان ؟

وحين ألحوا عليه أن يحدثهم عن أكثر مرة صاد فيها ، وعن عدد الطيور والارانب التى صاهاها ، قال بحدة :

- لا تنظروا الى كوحش . أنا انسان ، نعم انسان مثلى مثلكم ، وليس بينى وبين أى مخلوق عداوة من أى نوع ، فإذا كان بعض الطيور والحيوانات تغريبنى وأطاردها ، لائبنى أشعر بحاجة أكثر مما أشعر بلذة ، وحتى لو كانت هناك لذة ، فإنها لا تصل بالانسان الى حدود الإبادة والفتك ، حتى الذى يرغب بامرأة ، ويريد أن يعتصرها بين يديه الى الابد ، فإنه غير قادر أن يفعل ذلك بلا حدود ، أما اذا كان أحقق ، واذا فعل شيئاً لا يناسب الطبيعة البشرية ، فلا بد أن ينتهى بشكل ما . وأنا . . . عساف الذى لا يعرفه أهل الطيبة ، الا نائها فى البرارى ، ولا يلاحق الا الطيور والحيوانات ، أنا عساف الفهد ، لا أرب فى الصيد لمجرد القتل ولا أصيد أكثر مما يجب الا فى الاوقات الضرورية .

كان يريد أن يتحدث أكثر ، وبطريقة أفضل ، لكنه لم يستطع . اما الافكار التى دارت فى رأسه وملأت عقله وهو مستلق على جنبه ، وكلبه بقربه ، فقد كانت كثيرة الى درجة لا يستطيع أن يحاصرها ،

أن يقولها ، وحتى لو أراد أن يتكلم فإن كلماته تبدو غامضة فجأة وقد لا يفهمها أحد . وحين شرب كأسا جديدة وامتلأ نشوة شعر أنه يستطيع أن يتكلم بشكل أفضل ، خاصة وأن الآخرين قد تكلموا دون أن يطلب منهم أحد ذلك ، ودون أن يكون لكلامهم أى معنى أو ضرورة . لقد تكلموا بتلك الطريقة الفخمة المليئة بالأكاذيب ، والتي لا يفهمها إلا المتعلمون وأبناء المدن . فكر أكثر من مرة أن يصرخ ، أن يضحك بسخرية ، لكنه ابتلع أكثر ما كان يريد أن يقوله ، واكتفى بأن ينظر الى الوجوه ، وأن يراقب التصرفات .

كان عساف فى ذلك اليوم حزينا الى درجة لا يتذكر أنه حزن بهذا المقدار ، وشعر أن ثقلا أقرب الى الصخرة يجثم على صدره ، وإذا كان قد تعود أن يصدر الاوامر الى الصيادين الاغرار ، وأن يقودهم فى المسارب الضيقة ويتقدمهم فى المعاصى ، ليثبت لهم بطريقة ما انهم ما زالوا بحاجة الى وقت طويل لكى يتعلموا معنى الصيد ، وأن يتصرفوا بطريقة مليئة بالحكمة والذكاء ، ويميزوا بين الطيور التى تصاد وتلك التى يجب أن تترك لتعيش . . . اذا كان قد تعود ذلك ومارسه بمكر ، ولأسباب غامضة بعض الاحيان ، فلقد كان فى هذا اليوم أقرب الى الاستسلام واليأس ، وكان مستعدا لان يفعل ما يريده الآخرون .

لو أن عساف تماسك فى لحظة معينة ، لو أنه رفض بإصرار - مثلما تعود - الاستجابة الى رعوة الشباب وخفتهم ، لو أن الحزن فارقه واليأس لم يسيطر عليه ، لو أن الخبرة لم تتصاعد أبخرتها القوية الحادة الى الرعوس فى هذا اليوم الصيفى ، لو أن المكان كان غير هذا المكان ، لما حصل شيء ، لكن قوة غامضة ، أقرب الى البلاء ، ولعلها حكيمة بمقدار لا يدركه عقل الانسان ، هى التى قررت كل شيء .

فقبل أن ينتصف النهار ، وبعد أن استراحت القافلة أكثر من ساعتين بدا الزمن لضيوف الطيبة الذين أتوا من المدينة ، شيئا مختلفا لما يحسه أهل الطيبة ، ولما عاش فى مثل هذه الأماكن . اذ ما كاد يقترح أحدهم العودة الى الصيد ، حتى استجاب الآخرون بسرعة وسهولة ، وكانهم اتفقوا على ذلك من قبل . وعساف الذى نظر الى أبناء الطيبة نظرة تساؤل ، وجد فى عيون هؤلاء استسلاما حائرا . وبدا انهم غير قادرين على اتخاذ أى قرار ، وانهم يمثلون دورا أقرب الى الحماسة . ويستجيبون لاية رغبة يطلبها هؤلاء الافندية .

بعد تردد لم يطل ، نهض عساف ويلهجة مليئة بالسخرية والتحدى ، قال يخاطب كلبه :

- لا يتعلم الانسان الا بالتجربة ، أما الحيوانات فانها تتعلم أشياء كثيرة ثم تورثها الى أولادها وأحفادها ، وبهذه الطريقة تدافع عن نفسها وتواصل الحياة ، أما الانسان ..

وضحك بسخرية ، وبلا مناقشات طويلة اختار عساف مكانا جديدا ، قال ليقتنع نفسه :

- قد لا تكون الطيور هناك مضروبة ، وقد نجد بعض الاشواك تستظل بها .. ونحن وما قسم لنا !

وبالطريقة نفسها ، وبالأصرار نفسه ، حين وصل الى المكان الذي يراه مناسباً للصيد ، أوقف السيارة وأنزل كلبه ، ثم نزل .

لم يتكلم هذه المرة أية كلمة . لم يكرر بأية موعظة . اما حين قال أحد أبناء الطيبة بصوت عال لينبه الجميع :

- سنلتقى هنا بعد ساعة وأقصى حد ساعتين ، لان الطريق الى الطيبة طويل ، ويجب أن نصل مبكرين .

حين قال الرجل هذه الكلمات ، هز عساف رأسه دلالة الموافقة ، ولوح بيده بطريقة دائرية ، وقد فهمت تلك الحركة على أنه سيبقى في منتصف الدائرة ، وفهمت على أنها تحية .

الشمس تنزلق من السماء مثل رصاص مصهور ، والرمل أكثر سخونة من الجمر ، حتى الكلب وهو ينقل أقدامه تصدر عنه أصوات ضعيفة أقرب الى الاستغاثه أو الاحتجاج أو كأنه يمشى على أشواك حادة أو زجاج مكسور . وحين أقلعت السيارتان بسرعة خلفتا وراءهما سحابة كبيرة من الغبار لفت عساف فبدأ جزءا من الصحراء الممتدة بلا انتهاء . أما الكلب فقد عوى احتجاجا وركض لمسافة وراء احدهما السيارتين ، ثم عاد يبطء .

وإذا كانت الطبيعة بجبروتها غير المحدود ، فى البحار والمحيطات ، على قمم الجبال وفى أعماق الاودية ، فى الاصقاع المتجمدة وفى ظلمة الغابات . . . إذا كانت الطبيعة فى كل هذه الاماكن تنذر بالتحول وتبعث بإشارات من نوع ما ، فان ذلك العنفوان الداخلى لم يعد يقوى على الاحتمال وسوف يقلب جلده فى اللحظة التالية . فالصحراء الغامضة القاسية الموحشة المفاجئة تتجاوز قوانين الطبيعة لتثبت هذه القوانين . فلم تمض ساعة حتى جنت الدنيا ، هبت ريح قوية ، عاصفة غيرت كل شيء . كانت الزوابع تدفع اكثبان ابرملية وتسفها كما تفعل الرياح بالامواج ، فتتدحرج الرمال بسرعة كما لو أنها كتل من القطن الهش أو بقايا أوراق محترقة ، حتى أن الانسان ما أن يستدير قليلا ليتقى هذا الجنون المفاجيء حتى يمتلىء حلقه وتمتلئ عيناه بذلك الجمر الصغير الناعم وكأنه سقط من نار لا تعرف النوقف أو الانطفاء . ان ما حصل فى ذلك اليوم الصيفى ، فى أعماق الصحراء ، وعلى مسافة غير قصيرة من الطبيعة ، لا يمكن أن يستبعد أحد دون أن يبكى ، فالخوف الذى ملأ الدنيا خلال تلك الساعات كان من القوة والذهول الى درجة أن لا أحد يستطيع أن يتذكر ما حصل . حتى الكلمات تبدو باهته عاجزة ، ولا تعبر عن أى شيء . وأبناء الطبيعة الذين كانوا يعرفون بغريزتهم طبيعة الصحراء وقسوتها ، من رائحة الهواء ، من لمعان السماء القاسى ، من الزوابع التى تجاوزت الوادى وعبرت السهل كله حتى وصلت الى الطبيعة . . . ان هؤلاء لم يصدقوا الهول الذى يرونه أمام عيونهم . انه شيء لم يشهدوا مثله طيلة



حياتهم • والضيوف الذين أصابهم الهلع ، والذين فقدوا القدرة على التصرف ، تحولوا الى مجموعة من الدمى المتوسلة الباكية ، كانوا يريدون شيئاً واحداً : أن لا يموتوا !

وفى غمرة الخوف يفقد البشر القدرة على التصرف • فبدل أن يوقفوا السيارات وينتظروا ، كانت العواصف الرملية القاسية هي التي تحركهم ، هي التي تقسودهم • وفى المرات القليلة التي توقفوا وجاءت الزوابع حاملة الرمال الساخنة ، صرخوا برعب ، وشمعروا بالموت يطبق على رقابهم ، ودون انتظار وبدوافع غريزية حاولوا الهرب وإذا كانت الجيب قد ظلت محتفظة بقوتها وقدرتها على السيطرة ، فإن السيارة الأخرى بدت مثل سلحفاة ضالة لا تعرف الى أين تذهب أو متى تموت • وحين قال أحد أبناء الطيبة بأن الأمر أصبح خطيراً الى درجة تتطلب بقاء السيارات معا ، فقد شعر الجميع بنوع من الراحة • ولم يكتف سائق الفولكس فاكن بأن يبقى قريباً ، بل أصر على أن يمشى قبل الجيب ، وعلى مسافة أمتار قليلة منها •

انتظار الموت فى هذه الصحراء أصعب من الموت آلاف المرات • فالموت هنا لا يأتى فجأة ، لا يأتى متنكراً ، ولا يأتى بسرعة ويقضى على كل شيء ، وإنما يكشر عن أنيابه فى البداية ثم يقف على شسبابيك السيارات ، وبين لحظة وأخرى يعربد ، يصرخ ، يلطم الوجوه ، يسف حفنة من الرمال فى الأفواه والعيون ، وبعد أن يمل من هذا المزاح يتراجع قليلاً ، ليقفى مثل ذئب ، انتظارا لجولة أخرى • والجولة الأخرى لا تنتظر طويلاً ، إذ تصعد مثل البخار بسرعة جارفة قوية ، فتولد يبوسة فى الحلق ، هلعاً فى العيون ، انتظارا آخر قاسياً ممضياً • بالخشونة الكاوية نفسها ، بالجبروت نفسه الذى لا يعرف التراجع يدق الشسبابيك مرة أخرى دقات قوية متواصلة •

وبين انتظار وانتظار يموت الانسان ، يموت ألف مرة ، يفقد الثقة ، تتلاشى ارادته ، يسقط ، ينهض ، يترنح ، يمتلىء حلقة بأدعية خائفة لا يعرف كيف أتت ، يصرخ دون صوت ، ينظر فى وجوه الآخرين ليرى وجهه ، يتذكر ، يقاوم ، ينهار ، يسقط • يموت مرة أخرى ، ينهض من الموت ، يتأمل الامتسار القليلة التي يمكن أن ترى عبر الشسبابيك ، يلامس حبات الرمل المتسربة فى كل مكان ، يملأ حلقه بجرعة ماء ويستقيها لاطول فترة لعلها تمدد بمزيد من القوة على المقاومة ، على الصمود ، يفقد القدرة على الحديث ، يفقد القدرة على ابتلاع الماء ، يتحول الماء الى ملح ، يتحول الزبد الى زبد ، يريد أن

يصرخ ، أن يموت تماما ، يريد أن تشمق الارض فجأة وتبتلعها ، يريد ماء ، ظلا .. وينتظر !

حتى الزمن في الصحراء يكتسب معنى آخر . يتحول الى ذرات صغيرة ، الثانية ، والدقيقة هي كل الزمن . ثم يبدأ ذلك الزمن بالتفتت الى ما لا نهاية ، كالصحراء بلا نهاية ، ويلبى كالخيوط المبلول القاسى ، يشد دون توقف على الرقبة ، يحزها لكن دون أن يقطعها أو أن يبقياها ، ويظل هكذا موتا مؤكدا منتظرا ساخرا مؤجلا ، فيحس الانسان بالاختناق ، وتتصاعد ضربات القلب ، وترتفع درجات الحرارة ويتحول لون الوجوه الى الزرقة ، ولا يستطيع أن ينظر الواحد الى الآخر خوف الانفجار أو العويل .

والحرارة المنبعثة من الارض أو المنزلة من شمس السماء المتوهجة لا تترك للانسان لحظة من التسوازن والتفكير . فالظلمة حين تطبق تجعل الانسان يحس بضالة متناهية ، ويتضاعف رعبه مئات المرات . فبعد انتظار طويل ، لعل الريح تبدأ وتصبح الرؤية ممكنة ، بدت الشمس تميل نحو الغروب ، لم يرها تفعل ذلك ، لم يرها أحد تنزلق مثلما تفعل في البحر ، لكن من النور البارت المتداخل مع ذرات الرمال ، من ذلك الانكسار التدريجى فى الحرارة ، يتولد شعور ان الشمس أخذت هذا السمت بعد أن ظلت مثل حبل المشنقة فوق الرؤوس طوال ساعات النهار .

أى حوار فى مثل هذه اللحظات مستحيل ، لان الصراعات داخل قلب كل انسان كانت من الكثافة والتناقض الى درجة يمكن أن تولد الشئ ونقيضه ، وتدفع الانسان لان يفعل الشئ ونقيضه . فالحرارة المنبعثة من الشمس ، والتي كانت أشد الاعداء ، بدت حزننا مضيفة حين أخذت الشمس ذلك الميل منذرة بالانتهاء . أما النور الوهاج الذى كان ينفجر من كل الاشياء خلال ساعات النهار كلها ، فقد أصبح حلما ضائعا والظلمة تطبق تدريجيا ، والرياح التي كانت تحدد الاتجاهات ويمكن أن تقود الانسان الى مكان معين ، تحولت فى ظلمة المساء الاولى الى عويل ولطمات عمياء .

انه الموت ولا شئ غيره ، هكذا قال واحد فى نفسه ، والانسان فى لحظات اليأس المطلقة حين يوافق على كل شئ . حتى على الموت ، فانه يريده صاعقا كاملا نهائيا ، أما ذلك العرى الحاد الناضج فى كل شئ ، الدمار الذى يفتت الخلايا بقسوة تشبه النهش ، فان هذا النوع من الموت لا تمتلكه سوى الصحراء فى الليل ، وفى فيضان الرياح الذى

لا يعرف التوقف أو الراجحة .  
هذا هو الانسان ، ذلك المخلوق الضئيل المتلاشى ، فى مواجهة قوة  
غاشمة لا تدمره ولا تتركه !  
قال أحد أبناء الطيبة بصوت مخنوق :  
- الله يساعذك يا عساف .  
قال الذى جلس الى جانب السائق مكان عساف :  
- صحيح ، اين عساف ؟  
وغاصت الكلمات فى الافواه مرة أخرى وخيم الصمت ، لكنه ذلك  
الصمت المدوى الذى ينفجر فى كل لحظة ، فى كل شيء ، والذى تسمع  
ولولته فى كل الخلايا .  
فى وقت ما ، ولا أحد يمكن أن يحدد متى كان ذلك الوقت ، وكم من  
الزمن قد مر ، بدأت الريح تتراجع ، وبدأ عصف الرمال يخف شيئاً  
فشيئاً ، وان ظلت السماء مكتنزة بذلك السواد الثقيل القاهر ، وحين  
بدأ سائق السيارة الجيب يشعل الاضواء ويطفئها ، فقد بدت حركة  
ذكية مليئة بالمعاني . قال الجالس الى جانبه :  
- لا بد أن يرانا أحد ويأتى لانقاذنا !  
قال ابن الطيبة الذى يجلس فى المقعد الخلفى وراء السائق :  
- يجب أن تشغل السيارة وتدور عدة مرات لعل عساف يرانا أو  
نراه فنذهب اليه أو يأتى إلينا !  
دون مناقشة ودون تساؤل ، بدأت السيارة تدور مثل حيوان  
مربوط ، وبين لحظة وأخرى ، كان السائق يشعل النور ويطفئه ،  
لعل شيئاً يحصل وتكون فيه النجاة .  
قال ابن الطيبة :  
- اذا وجدنا عساف يمكن أن ينقذنا ونعود الى الطيبة بسهولة ،  
أما اذا لم نجده .  
وسكت . تطلعت اليه العيون دون أن تراه ، واذا كانت الظلمة قد  
خلقت خوفاً من نوع جديد ، واذا كان الشعور بالنجاة بدأ مثل  
خفقات قلب مريض ، فان هذه الكلمات انفجرت داخل السيارة وكأنها  
نهاية كل شيء !

يقول الذين وصلوا عصر اليوم التالي في ثلاث سيارات ، أحدهما  
لسلاح البادية ، وعثروا على السيارتين ، انهم وجدوا أغلب الرجال بين  
الحياة والموت . كان عدد منهم فاقد الوعي ، وكان الآخرون في حالة  
من الاعياء الشديد . أما سيارة انفولكس فاكن فقد انغرزت اطاراتها  
الخلفية في الرمال وأصبحت في حالة من الانهالك الى درجة أنها لم تعد  
قادرة على الحركة ، ووجدوا الحبل الذي حاولت الجيب استعماله  
لسحبها قد تقطع في عدة مواضع . أما كمية المياه التي كانت في  
السيارتين فقد نفذت تماما ، ولم تبق الا أوان فارغة يخش فيها الرمل  
ويقول هؤلاء انهم لو تأخروا ساعة أو أقل لمات جميع من كان في  
السيارتين . أما حين بدأوا يرشون على وجوه الرجال الماء ، وبدأوا  
يكلّمونهم ، فلم يستطع أى من الرجال السبعة أن يتكلم كلاما واضحا ،  
كانت غمغات أقرب الى أصوات الحيوانات . ولقد بكى اثنان من  
الرجال السبعة ، أحدهما من أبناء الطيبة ، ولم تعرف أبدا أسباب ذلك  
البكاء ، وهل كانت تعبيرا عن فرح أو عن شيء آخر ؟  
وبضع دقائق ، ورغم الالاحاح في السؤال عن عساف ، لم يستطع  
أحد أن يجيب .

لكن ثلاثة الرجال الذين كانوا في السيارة العسكرية قال بلهجة  
لا تقبل المناقشة :

- ابقوا في أماكنكم . لا تتحركوا أبدا ، وسبوف نجد عساف  
قال أحد رجال البادية وكأنه يطمئن الجميع :

- لابد أن يكون قريبا ، وسنجده !

وبخفة متناهية قفز الى البيك آب ، دون أن يحس أحد ، مختار  
المنطقة الشرقية ، وأخذ مكانا حصينا قريبا من القمرة ، وأمسك  
بالحديد الامامي بقوة .

كانت الصحراء الممتدة بصفرتها المائلة الى زرقة مثل حلقة لا أفق  
لها ولا نهاية . وحين انطلقت السيارة بدوى مناجىء صرخ الذى بكى  
من الضيوف . وركض وراءها ، ثم سقط على الارض وأخذ بالعويل ،  
وحتى حين حمل وأعيد الى السيارة وأعطى قطيعات من الماء ، ظلت



دموعه تتساقط دون توقف ، ثم غطى وجهه بيديه وأجهش ، وظل كذلك فترة طويلة .

كان الحشد الكبير ينتظر ، وكان الامل لا يزال قويا في العثور على عساف . واذا كان الصمت ، في حالات كثيرة ، أفضل وسيلة للتعبير ، فقد ظلت أسئلة الرجال الذين جاءوا من الطبيعة بلا اجابة ، وإن كانت اجابتها واضحة قوية في الوجوه ، في الحركات ، في الشفاء المتشقة المفطورة . أما حين سقطت بعض الدموع فقد كف الجميع عن الكلام . وأنشدت العيون الى كل الاتجاهات لعلها ترى بشرا أو ذوالا ، وكان امل واحد ، مثل نسمة باردة ، يخفق في كل صدر ، وارتفعت ابتهاجات لا تخطر على بال ولا نهاية ، وكانت أقرب الى التمتة وتشبه الدعاء ، أن يكون عساف حيا وإن يجدوه .

لقد انبثقت في تلك اللحظات آلاف الصور في أذهان الرجال الذين ينتظرون ، وتلك الصور ، وإن بدت متداخلة مضطربة ، وأنسرب الى الحلم ، فإن صورة عساف كانت أشدها وضوحا وأكثرها بياضا : حين كان يعود بعشرات الطيور ويوزعها بمهارة لا تخطئ ، حين كان يمزق بعض المواضع من أحذيته وثيابه ، حين كان يجمع الخرطوش البارخ من الصيادين الأغرار ويتأمله بعناية ثم يحضره بعناية أكثر ليستعمله في اليوم التالي ويتأكد بنفسه من قوته ، ثم لما تخلص نهائيا عن الخرطوش المصنوع من الورق المقوى واستعاض عنه بخرطوش النحاس ، وكيف كان يحتفظ ببعض هذه الخراطيش في جيب جلدي صغير لصقة على صدره ، كيف كانت الطلقات تبدو شديدة اللعان ولا يستعملها ، كما يقول ويؤكد ، إلا « لقتل الوحوش » - أن هذه الصور ، وعشرات غيرها ، تمر في هذه اللحظات مثل شريط طويل ، وكل انسان متأكد أن عساف ستنشق عنه الأرض وينفجر فجأة كما تنفجر الطلقة . وأهل الطبيعة الذين تعودوا على عساف وغياباته التي قد تطول يومين أو ثلاثة ، حين تحاصره الثلوج أو يفيض الوادي ، اذا كانوا قد تعودوا عليه وألفوا كل شيء يصدر عنه ، فقد كانوا متأكدين تماما من شيء واحد : سينفجر عساف بينهم ، وإن السيارة حين تعود يائسة مثقلة بالخيبة والحزن ستجده وسط المجموعة ، يتحدث بتلك الطريقة المبهمة ، الحافلة بالاصوات غير المفهومة ، عن رياح البارحة وعن جنون الطبيعة وغدر الصحراء . ويجب أن يضيف في النهاية : الانسان أقوى من الطبيعة ، ويعرف كيف يروضها أو يحتال عليها ! كانت الافكار والصور تتلاحق ، وكانت النسمات الطرية التي بدأت

تهب مع ميلان الشمس نحو الغروب تولد أملا يقوى كل لحظة ، وتولد  
بأسا يقوى كل لحظة ، وفي خضم الافكار والصور ، ومع كل نسمة  
جديدة كانت العيون تدور ، والصمت يقوى . الى أن جاءت تلك  
الصرخة المفاجئة المدوية :

— هذه هي السيارة !

لحظات قاسية من التوتر أقسى من أية لحظات أخرى وأشد عذابا  
من عمر بأكمله . لم يبق أحد في مكانه ، حتى أولئك الرجال المتعبون،  
والذين لفت على رؤوسهم الخرق المبللة ، شعروا بنوع من التحدي  
والقوة ، فمن لم يستطع النهوض والركض مع الآخرين تجاه السيارة ،  
تحرك في مكانه أو غير جلسيته ليشهد عساف وهو ينزل .

كانت وجوه الرجال وهي تطل من فوق شديدة القسوة والصرامة،  
وللمحظات والسيارة تقترب ثم تتوقف ، تأكد الجميع انهم لم يجدوا  
عساف . لقد غمرته الرمال وابتلعتة الارض ولم يبق منه أثر ، لكن  
هجأة ، والمختار يمسك الحديد الامامي ، ويهزه بعصبية أول الامر ، ثم  
يصرخ ويشير الى الخلف .

ترك الرجال يستديرون حول السيارة . والتفت بصلاية وبطء ، حتى  
إذا نظروا ورأوا عساف هكذا . . صرخ ، كان صراخه أقرب الى  
الشتيمة :

— راح . عساف . . ونحن الذين قتلناه . راح الغالي .

كان منظرا فاجعا مليئا بكآبة خرساء وأقرب الى عدم التصديق .  
كان عساف في قاع البيك آب ، كان هناك ، كان يابساً متخشبا  
وقد تقلصت عضلات وجهه وبدأت على أطراف الشفتين ابتسامة هي  
مزيج من الألم واليأس والسخرية ، وبدأ كأنه يريد أن يتكلم ! وحين  
استمر المختار في الهياج ثم البكاء ، واتضح الصورة حادة نازفة  
متجبرة ، سمعت أصوات نشيج مكتوم ، وتساقطت الدموع . كان  
لمسقوط الدموع رنين قوى موجه وكأنه نهاية لفترة طويلة من الزمان !

كيف يمكن للبشر أن يصمتوا بهذا المقدار ولهذه الفترة الطويلة ؟  
كيف يستطيعون نسيان جميع الكلمات والاصوات التي بدأوا الحياة  
بها ، وهم ينقذون من الارحام ؟  
كيف كيف يمكن ذلك ؟

طوال الطريق ، الذى استمر اكثر من ساعتين ، ظلوا صامتين !  
والمختار الذى ظل واقفاً فى مكانه ، قابضاً بقوة على حديد القمرة ،  
وناظراً الى الامام باستمرار ، طلب من قائد السيارة العسكرية التابعة  
لقوة البادية ، بكلمات متلجلجة ، لكن واضحة أيضاً ، أن يذهب  
الجميع الى بيته . حصل ذلك حين توقفت السيارة فى مدخل الطيبة ،  
وحين بدت جموع الناس وهى تنتظر ، وتحاول أن تعرف أى شيء  
حصل .

قال المختار ، فى الظلمة التى تخيم على كل شيء ، ولا يستطيع  
الانسان أن يميز الآخرين الا من أصواتهم :  
- تعالوا الى بيتى . . هنالك سوف نلتقى .

وبطريقة خفية حافلة بالحنان والعذوبة والخسوف والتقدير ،  
حملت جثة عساف الى الداخل . وضعت فى صدر المضافة ، ووضع  
الى جانب الرأس فانوس ، وقريباً من يده اليمنى وضعت البندقية ،  
وبحركات آلية ، كأنها رتبت منذ وقت طويل ، وبعد أن تم ذلك بهدوء .  
واتقان ، طلب المختار من الجمع أن يجلسوا .

الصمت . الصمت ، ولا شيء غير الصمت ، وما عدا الحركة  
الثقيلة الحافلة بالحزن ، والمتمثلة بتلك الوجوه الملهوفة المتسائلة ،  
فإن الطيبة من أعجب الاماكن وأكثرها غرابة ، لا تستطيع أن تفضح  
عواطفها بسهولة ، وحتى لو أرادت أن تقول شيئاً فإنها كثيراً ما تقول  
ذلك الشيء بطريقتها الخاصة ، والتى قد لا تبدو مألوفة أو مفهومة !  
لم يتجراً أحد أن يسأل المختار ، أما رجال البادية الذين ساعدوا  
فى حمل الجثة ، فقد قال العريف الذى يقودهم :

- سوف نذهب ونجهز التقرير لرفعه غداً صباحاً .  
ودون انتظار تحركت السيارة ، وغادرت المكان !

والمختار الذى كان يادى العصبية ، ومحور العينين ، والذى كان يتحرك بعض الاحيان حركات طائشة لا تعنى شيئا ، فقد كان يقاوم فى نفسه ذلك الكابوس الذى لا يطيق أن يحتفظ به ولا يقوى أن يعبر عنه . وهو اذ كان قد برع فى كل الاوقات على أن يدير الحديث ، وأن يتكلم بطريقة لا يحسنها غيره فى الطيبة ، والذى كان يوصف بأنه قادر على أن يرش على الموت سكرًا ، ويقدم أصعب الامور وأكثرها مشقة ، بأيسر الوسائل وأكثرها قبولا ، بدأ تأثها ضائعا خائفا ، وبدأ شديد العصبية بحركات يديه ووجهه . أما حين انتظم مجلس الطيبة ، كما لم يحصل ذلك من قبل ، ووسط الصمت القاسى الذى خيم على كل شيء ، انفجر صوت المختار ، دون أن يطلب اليه أحد ، ودون مقدمات من أى نوع :

- هذا عساف . . انه أمامكم ، انظروا اليه .

وهز رأسه بلوعة ، دون أن يلتفت ، ثم تابع بلهجة يخنقها البكاء :  
- عساف الحصان ، عساف الغيمة ، أبو الفقراء ، الذى لا ينام ساعة فى الليل من أجل أن تعيش الطيبة وتبقى . . عساف الذى يحب الجميع ، ويقتل نفسه حتى يستمر الناس . . عساف زينة الرجال ، تركم الآن ، تركم وحيدين تحاربون الحكومة والعسكر والجراد ، ولا أحد يعرف أية قوى أخرى . . وماذا سيحصل ؟  
كاد أن يواصل ، خاصة وان كلماته نزلت الى قلوب الرجال كأنها السنكاكين الملتهبة ، فحركت الرؤوس ودفعت حبات من الدموع لكى تتساقط بصمت ، لكن فجأة تغيرت أفكاره واضطربت :

- ما فائدة الكلمات الآن ؟ يمكن أن فكرز من هذه الساعة وحتى يوم القيامة ، لكن كل يوم يسقط منا الرجال ، وتسقط البيوت فوق رؤوسنا وتقطع الاشجار بأيدينا . . ولا يتغير شيء !

قال رجل مسن يريد أن يغير الموضوع :

- حتى هذه الساعة لا أصدق أن الرجل مات .

قال المختار :

- انتظر . . وسوف ترانا ، واحدا بعد آخر ، نهوى على وجوهنا .  
وتطمرنا الرمال ، وقد لا نجد من ينقط فى حلقنا قطرة ما .  
وقهقه المختار بطريقة تختلط فيها السخرية بالنشيج ، بالحزن الكاوى ، ثم أضاف :

- تماما كما حصل مع هذا الحصان !

قال رجل وهو يصوب عينيه الى عساف ولا يرفعها :



- لكن كيف مات ؟ كيف حصل ما حصل ؟

قال المختار وهو يغير جلسته ، لان الموضوع يحتاج الى بعض الحركات والاشارات ، ولكي يخلق في نفوس الناس التأثير المناسب :  
- اسمعوا . . كدنا نعود . يثسنا من البحث . درنا في كل مكان ، بحثنا في كل الامكنة التي تصورنا أن عساف يذهب اليها ، خاصة وان السيارات لم تذهب بعيدا . ومقبل ، الذي يعرف الصعجاء شجرا شبرا ، قال أن هذه هي اماكن الصيد ، وعساف باعتباره صيادا يعرف أين يذهب ، ولا يمكن أن يذهب أبعد من ذلك . بهنسنا . . بحثنا ، وقائد البادية ، وقف أكثر من مرة على ظهر قمره السيارة وتطلع في كل الاتجاهات مستعملا ذلك المنظار الذي يرى الابرة من مسافة طويلة ، لكن لا شيء . ومقبل ، الذي يملك عيون صقر ، تطلع في كل الاتجاهات ، ولكن لا شيء . كدنا نعسود ، كنا متأكدين أن عساف دفن تحت الرمال ولا يمكن لاحد أن يراه ، لكن فجأة بدأ مقبل يخبط قمره السيارة بقوة .

توقفت السيارة . نزل القائد ، ونزل السائق ، ومقبل ظل ينظر باتجاه معين . بدأ مترددا أول الامر ، لكن فجأة صرخ :  
- يجب أن نتجه الى الناحية اليسرى ، لاننى أرى نسرا . لنست متأكدا تماما . لكنى رأيت نسرا يحوم ، وما دام هذا الطير يعلو وينقض بهذه الطريقة فلا بد ان هناك شيئا !

وقبل أن يكمل مقبل كلامه وضع القائد المنظار المقرب على عينيه ، حيث أشار مقبل ، وهز رأسه دلالة الشك أول الامر ، ثم بدأ متأكدا ، وبسرعة طلب من السائق أن يتوجه ناحية اليسار .

لمسافة كبيرة بدت الارض مثل راحة الكف ، لا شيء أبدا ، والنسر الذى لم يكن يرى أول الامر . بدأ مثل نقطة سوداء فى الفضاء البعيد ، كان يصعد ويهبط ، وحين رأيناه أول مرة ، غاب ثانية . تصورنا الامر كله وهما ، وان مقبل لم ير شيئا ، لكن والسيارة تتجه حيث يريد ، والسكون يخيم على كل شيء ، والارض خاوية لا تظهر شيئا أبدا ، بدأ على مسافة بعيدة زوال . قال مقبل بتأكد جازم :

- « هذا النسر حط على شيء . ويجب أن نصله لنتأكد ! »

وأسرعت السيارة . وتعلقت عيوننا حيث يشير مقبل ، وفى كل دقيقة تقترب أكثر فأكثر حتى تأكدنا من وجود النسر . كان من مسافة بعيدة يبدو جالسا مثل رجل . كان بسواده القاتم شديد الوضوح ، وترتفع قامته شيئا فشيئا ما دمنا نقترب . وحين أصبحت المسافة

بيننا لا تزيد على مئات الامتار طار . بدا ضخما مهولا ، وبان البياض  
فى لونه الى جانب السواد .

ومع كل خطوة تقتربها السيارة ، حيث كان يربض النسر ، بدت  
لنا الصورة أكثر وضوحا وقسوة مما كنا نتصور .

كان عساف مدفونا بالرمل . لم يكن يظهر الا رأسه ، وفوق الرأس  
تماما كان الكلب رايبضا ، وكان الجزء الاكبر من جسد الكلب مدفونا  
بالرمل أيضا ، ولكن بطريقة غريبة للغاية ، كأن يشكل سياجا حول  
جسد عساف ، خاصة رأسه . . كان يحتضنه .

ولما وصلنا رأينا كل شيء واضحا !

قال مقبل بثقة : - عساف مات قبل الكلب ، ولا بد أن بعض الطيور  
. . ربما هذا النسر أو غيره ، أحسست وعرفت بذلك ، وجاءت لتأخذ  
نصيبها منه ، لكن الكلب ، وفي محاولة لحماية عساف صارعها حتى  
صرعته . انظروا الى الدماء المتجمدة فوق رأس الكلب ، لقد مزقته  
بمناقيرها لتصل الى عساف ، وفيما هو يدافع عن نفسه ، وعن عساف  
تهشم ، ولا بد أن يكون قد مات من العطش أو من النهش . . »

قال مقبل ذلك وامتدت يده الى الرمال تزيحها وتسحب جثة عساف  
الجثة مدفونة بالرمل تماما . المطرة فارغة ، وعساف يقبض على البندقية  
بقوة ، ولا بد أن يكون قد قام وسقط عدة مرات ، لأن يده اليسرى  
ملتوية ومزقة ، ومن حسن حظه انه سقط على وجهه ، لو كان فى  
وضع آخر لاكل النسر عينيه وهشم وجهه ، والكلب حين رأى عساف  
يسقط قام فوقه . لا بد انه حاول انقاذه بشكل أو آخر . . لكن  
العاصفة كانت أقوى من الاثنين !

بهذه الطريقة انتهى عساف .

سكت المختار ، وضع يديه تحت صدغيه ، كأنه يحاول أن يمنع رأسه من السقوط أو كأنه يتذكر ، وخيم صمت ثقيل ، وبصوت مختلف تماما ، صوت يأتي من عالم آخر ، أضاف :

- كان بودى لو حملنا الكلب معنا ، كان يستحق ذلك ، لكن لم أجرؤ على طرح الفكرة ، بدت لى لا تناسب الموقف ولا يمكن أن يفهمها أحد . أما حين حملنا لهجته ووضعناها فى البيك آب ، فقد ظللت على الأرض لبعض الوقت ، وكنت أنظر الى الكلب . لم أستطع أن أرفع نظرى عنه ، لكن قائد السيارة العسكرية ، قال بصوت عصبى ، وإن كان فيه بعض القسوة : « لم تنته مهمتنا بعد ، علينا أن نصل الى الجماعة » . ولما صعدت الى السيارة ومررت الى جانب الهجته ، نظرت اليها بامعان ، بدا لى وجهه شديد الحزن ، ولا أعرف كيف سمعت صوت عساف . سمعته يقول : « والكلب .. هل تتركون الكلب ؟ » وبسرعة . وبخوف اقتربت من الجنديين اللذين كانا فى مقدمة السيارة ولم أستطع أن أنظر بعد ذلك الى الخلف . كنت خائفا ، كنت خائفا تماما من أن أرى عساف ، أو أن أسمع كلماته ، وسيطر على الخوف أكثر عندما مالت الشمس الى المغيب وتصورت الذين ينتظرون ، وتصورت الطيبة والبشر ولا أعرف أية أحزان أخرى . قال أحد المسنين ، وقد بدت فى لهجته رنة حزن لم يتمسودها الكثيرون :

- كان من الواجب أن تهيلوا عليه التراب لكى لا تاكله الطيور !

رد المختار بعصبية :

.. كان الواجب أن نأتى به .

قال الرجل المسن :

- لا يمكن أن تحمل الحيوانات حين تموت ، لكن الاكرم لها أن

يهال عليها التراب .

هز المختار رأسه وقد بدت عليه علائم الحزن الشديد والندم ، ولم

يتكلم .

قال صاحب القرن :

- أعجب شيء في هذه الدنيا العلاقة بين الانسان وما حوله من أشياء ، من حيوانات وأشجار وبيوت وانهار ، حتى الصحراء التي لا تبعد كثيرا عن الطيبة يتعلق بها الانسان في حالات كثيرة ، لان فيها نجاته ، ولولا ذلك لما ذهب عساف الى هناك . كان يريد أن يخلص الطيبة ، ويخلصني أنا بالذات ، لان الارغفة القليلة التي أصبحت تخرج من القرن لم تعد تكفى أحدا .

قال رجل ظل صامتا ، لكن دمة سقطت حين بدأ يتكلم :

- في الطيبة ، كما في أى مكان آخر من هذا العالم ، ما يحتاج الى تغيير هو الانسان .

وصمت لحظة ، جفف دموعه التي كانت تتساقط دون ارادة على خديه وأضاف :

- لو اتنا فهمنا ما كان عساف يقوله ، لكانت حالنا الآن أفضل .  
قال أحد المسنين :

- لقد رحل عساف . ذهب ولن يعود .

توقف قليلا ، ابتسم بحزن وكاد أن يتابع ، لكن واحدا آخر قال بعصبية :

- أغلب الاحيان تأتي الاشياء متأخرة !

قال شاب صغير لم يفتن أحد لوجوده طيلة الوقت :

- اذا ظلت الطيبة تنتظر المطر . ولا تفعل شيئا سوى انتظار المطر ، فسوف يموت الجميع كما مات عساف . . وربما أسوأ !  
قال المختار :

- أكبر ظلم لعساف أننا تركناه يحارب وحده . حتى الكلب كان أحسن منا ، لقد حاول انقاذه . ونحن لم نفعل .

قال أحد الرجال :

- والله . . الأكثر ظلما أن نترك البشر ، أما الكلب . فانظروا ، هذه هي الدنيا !

وتنهد بحزن ثم أضاف :

- كنت أعرف أن عساف يريد أن يموت . وأنه سسيقتل نفسه بشكل ما ، اذا لم يكن في هذه الرحلة ففى رحلة غيرها ، واذا لم يكن فى الصحراء فتحت أكوام الثلج . وأنتم تتذكرون حياته كلها ، تذكرون كم مرة ضاع . وكم مرة بحثنا عنه . .

كان يريد أن يواصل الحديث ، لكن أحد المسنين قال فجأة :



- يستغرب الانسان انه فى حالات كثيرة لا يمكن التفريق بين الحيوانات والبشر ، وربما كانت الحيوانات أفضل من بشر كثيرين ، لكننى منذ جاء هذا الكلب الى الطيبة تشاممت وقلت لابد أن يقتل هذا الكلب عساف .

قال المختار بحدّة :

- الكلب لم يقتل عساف ، نحن الذين قتلناه .

- لا يهم من قتل الآخر ، المهم الآن ان عساف . الذى يرقد هنا ،

لا يسمع ولا يحس بوجودنا .

قال المختار بحدّة :

- لا .. انه يسمع ، نعم انه يسمع كل شيء .. ويفهم كل ما يقال !

قال أحد المسنين :

- يا أبناء الطيبة .. لا تكونوا حمقى أكثر مما يجب ، الرجل انتهى

الآن ، ولا يمكن لاية قوة على الارض أن تعيده ، وليس غير الله قادرا

على ذلك . واذا أردتم أن تكرموا عساف فدعوه نائما بسلام ، واسهروا

حتى الصباح ، ومع أول أضواء الفجر نحمله الى الارض لنعيده اليها .

وبطريقة أقرب إلى الفموض والتحدى بدأت السهرة • بدأت بنوع من التكريم الذى لم تتعوده الطيبة من قبل ، ربما نتيجة للخوف أو لبقايا قناعات ومواقف تجاه الموت • ورغم ان شعورا بالرهبة خيم على الجميع ، وان عددا من الناس ، بمن فيهم الضيوف ، كان يتمنى لو أن الامر لم يأخذ هذا الشكل ، لكن ازاء اصرار مبهم ، وبلحظة من لحظات الانفعال الشديد ، قال المختار بعصبية :

- يجب أن تبقى معنا يا عساف لتشاهد كل شيء •  
- وأدار رأسه ، وعيناه مغمضتان ، ويداه ترتفعان بطريقة تحمل معانى لا حصر لها ، وتابع كانه يخاطب نفسه :

- أنت لم تمت • يا عساف • • وستبقى معنا •  
قال رجل من مكان بعيد :

- الحياة والموت بمشيئة الله يا جماعة • • والآن انتهى كل شيء •  
قال شاب بعصبية :

- عساف لن يموت • وهو الآن أكثر حياة منا جميعا •  
قال رجل مسن :

- لا تكفر يا ولدى • • ان الملائكة ترفرف فوقنا الآن •  
قال أبو زكو ، الذى يبنى كل شيء فى الطيبة ، حتى القبور ، وبدأ كلامه مليئا بالذكاء ، والمكر ، لكى يخرج الخوف من القلوب :

- يا جماعة • • الصباح لا يزال بعيدا ، وعلينا واجب ثقيل غدا ، فاما أن تقرأوا القرآن وتحدثوا • أو ليذهب كل واحد الى بيته ونعود فى الصباح •

قال المختار بعصبية :

- من يريد الذهاب ، فالباب مفتوح •  
ونظر فى وجوه الناس ليرى وقع كلماته • • وتابع :

- أما أنا فلن أنام لحظة واحدة ، وسوف أسهر فى هذه الغرفة ، الى جانب الرجل ، حتى يطلع النور ونحمله الى قبره •

وبهذه الطريقة العجيبة بدأت سهرة من نوع لم تألفه الطيبة قط • تحدث أكثر الموجودين ، تحدثوا عن أشياء كثيرة ، حتى الضيوف روى

قصصا لم يفهمها أهل الطيبة جيدا ..  
في تلك السهرة قيلت أشياء وأشياء ، وعساف مسجى ووجهه  
مكشوف ، والضوء يتراقص على وجهه وعلى وجوه الآخرين فيخلق جوا  
من الغرابة والخوف .. والجنون أيضا ، والناس لا يريدون أن يتوقفوا  
لحظة واحدة .

وإذا كانت هذه الاحاديث قد توالى دون منطق ، وربما دون ضرورة  
واضحة ودون مغزى أيضا ، فقد كانت الرغبة تسيطر على الجميع ، ان  
يقاوموا الصمت ، أن يقهروه .

تحدثوا عن الكلاب والغزلان والحمر ، تحدثوا عن فيضان الوادى ،  
وعن جفاف النبع ، وتحدثوا عن عساف وعن البشر ، وتجرا واحد وقال  
أبياتا من الشعر ، وكاد أحد الرعيان أن يستعمل نايه ، لولا أن رجلا  
مسنا انتزعه منه بقوة ونظر اليه نظرة تختلط فيها القسوة بالعتاب !  
لا أحد يتذكر بدقة الأشياء التى قيلت أو من قالها ، لكن حين تذكر  
الطيبة ، وحين تهجم الاحزان .. وإذا جرى الحديث فى وقت من  
الاقوات عن نهايات البشر والحيوانات .. وحتى الاشجار ، فلا بد أن  
ترتد صورة تلك الليلة العجيبة لتذكر بشيء واحد : بالنهاية !

حتى الضيوف الذين تخشعوا فى بداية السهرة ، وتقيا واحد منهم  
بعد أن نظر الى البجته الممددة أكثر من مرة ، فانهم بطريقة غريزية  
أقرب ما تكون الى حالة من حالات التطهر التى يلجأ اليها الانسان فى  
اوقات معينة ، نسوا كل شيء ، أو هكذا أوحوا لأنفسهم ، وانساقوا فى  
الدهاليز المظلمة التى قادهم اليها أهل الطيبة ، وظلموا يسمعون  
ويتحدثون ، لكن الخسوف كان يربض فى كل حركة ، حتى حركة  
الاجسام وهى تستدير لتقاوم التعب والخدر ، وحتى السعال الذى  
يأتى فجأة ، ثم قطرات الدموع التى تتساقط دون ارادة ، كانت تخلق  
الخوف والجفلة ثم جاءت ولتحفر فى القلوب مجرى عميقا لا يتوقف عن  
النزف كلما ذكرت الطيبة ، وكلما جرى الحديث عن الحيوانات ، وحتى  
عن البيوت حين تنهدم ، وحتى عن الغبار المتخلف من كل شيء كانت  
له رائحة خاصة تذكر بأحزان لا حدود لها .

## بعض حكايات الليلة العجيبة

جاءت سنوات القحط ، وجاء الجراد ، وجاء بعدهما الغرباء ، وهذه كلها غيرت طبيعة الناس والحياة ، فهجم الحزن واستقر في قلوب المسنين ، حتى أن الكثيرين قالوا بصوت عال : الموت أكرم من هذه الحياة الملعونة التي نعيشها هذه الايام . وقال آخرون : لم يعد بيننا وبين القيامة الا وقت قصير وتنتهى الحياة .

مع هذه الموجة الملعونة من التغير ، جاءت تلك السيارات التي تشبه الخيم ، سيارات قاسية الملامح ، قاسية الصوت ، لا تتوقف ولا تعبا بأية صعوبة كانت ، تجتاز المسافات بسرعة ، وتخوض في الرمال كما تخوض في المياه . أما الاحجار التي تعترض طريقها فكانت ترفسها مثلما تفعل البغال ، وكثيرا ما قال المسنون انها عربات تحمل في أعماقها العفاريت ، لان ما تفعله لا تفعله الا العفاريت ذاتها .

وحوانات الصحراء التي أحسست بفريزتها بتلك التغيرات وأصابها الخوف ، ابتعدت عن الاماكن التي تمر بها السيارات ، وتجنبت ورود المياه التي كانت على الطريق ، واكتفت بأقل الطعام لكي تبقى بعيدة عن الحركة وعن تلك اللحظات المجنونة التي تخترق الانسان وتحوله الى كائن أشبه ما يكون بالرياح السوداء .

هكذا كانت الحياة حتى وقت ما ، لكن الاغنياء والغرباء تصيبهم لحظات الجنون أكثر من غيرهم ، وتخترقهم أرواح ملعونة تجعلهم أقرب الى العفاريت . وهم الذين رفضوا استعمال خيşam الحديد أول الامر ما لبثوا أن اقبلوا عليها برعونة . وفي ذلك الوقت بالذات قال المسنون بصوت عال تماما : الآن لا ننتظر القيامة وانما نراها .

ومثلما تنبىء الرياح عن الامطار ، فقد بدأت الاشياء تتغير بسرعة . تغيرت الصحراء كثيرا : شقتها الطرق ، وملا صسمتها دوى الآلات ، واخترقت ظلمتها المدينة أضواء تشبه النيازك ، وحتى الاماكن التي لم يالفها الضب والعفاريت ما لبثت أن أصبحت مسكونة بهؤلاء الذين جاموا من حيث لا يعرف أحد ، وفي تلك الاماكن فتحوا مطاعم من نوع لم يالفه أحد من قبل . وتقاضوا ثمنا كبيرا لما يقدمونه ، من ماء أو شاي محروق . اما اذا توقف الرعاة هناك طلبا للراحة فكانوا يتابعون



بنظرات الازدراء والقسوة ، وحتى الجمال التي تعرف كيف تحتل  
أقوى أنواع الحياة ما لبثت أن تحولت الى مخلوقات عجيبة مستنفزة  
بصورة دائمة ، فاذا لم تكف نظرات الغرباء لتجبر الرعاة على الرحيل  
فقد كانت الجمال تفعل بهياجها ورغائها .

حديث الصحراء اذن ليس له نهاية ، انه مثل امتدادها واتساعها  
وقسوتها ولا نهايتها ، انه حديث الحياة بكل ما فيها من امداد واتساع  
وقسوة ولا نهاية ، لكن حدث شيء ما جعل لذلك اليوم ، بعد العصر  
وقبل الغروب بقليل ، دويا يمتد الى أماكن بعيدة ، ويحدث أثرا فلما  
يحدث ، فالعزى مجنون قرية الجوف ، والذي لا يعترف بحرفة غير  
الصيد ، والذي تحول عشقه من القوس الى البندقية : بعد أن سمع  
جميع الصيادين من طريقته البائسة في استعمال هذه الادوات القديمة ،  
أثبت انه خلق للصيد ، وانه لا يقل مهارة في استعمال البندقية عن  
القوس مثلما كان من قبل ، وشعر بنوع من اللذة والتفوق حين كان  
يرجع بطريدته التي يريدتها ويرميها بالمكان الذي يريد .

سوف يكتب الكثيرون ، ذات يوم ، عن مهارته ومعرفته ، وسوف  
تحكى قصص كثيرة عن جنون العبقرى ، أما الجنون الحقيقي ، فقد  
حصل ذلك اليوم بعد العصر وقبل الغروب .

لا يعرف كيف وافق على تلك اللعبة الملفة ، حصل ذلك فجأة ،  
بعد تحد من تلك التحديات التي تأتي وكأنها انبثاق لظلمة قاتلة .  
قالوا : « العزى يرمى بالسهم أحسن من البندقية » . سمع ذلك  
ونظر اليهم ليمتحن ان كانوا يعنون ما يقولون ، أم انها مجرد كلمات  
يخلقها الليل والسر . وحين ضحك ضحكته الصغيرة ولم يجب كانوا  
يعرفون أن كلماتهم لا تعنى شيئا بالنسبة له ، وانه أكثر ثقة من أى  
وقت . أما حين قال ذلك الماكر ، أبو غريفة « ان العزى هدف  
لا يخطئ .. » وتوقف قليلا ثم ابتسم ، فقد احس العزى ان شيئا  
ما سوف يحصل .

واذا كانت المفاجأة عدو الانسان ، فقد كانت عدو العزى أكثر من  
أى انسان آخر .

في ذلك الوقت ، وبعد كلمات أبو غريفة ، خيم صمت طويل قاس ،  
وانتظر الجميع أن يقول شيئا ، وهذا ما حصل بعد ذلك .  
قال أبو غريفة :

— العزى هدف لا يخطئ ، اذا كان راجلا ، اما والسيارة مثل  
البرق ..

وابتسم دون أن يضيف كلمة واحدة أ  
في ذلك المساء وافقوا أن يكون الرهان كبيرا ، والعنزي الذي وافق ،  
قال بتحد :

— سوف آخذ طلقة واحدة .. وسوف ترون .  
انها المرة الأولى التي يشعر العنزي فيها بالتوتر ، بالتعب ، وبنوع  
من الحزن . وسأل نفسه . « هل أظفر في هذه التجريبية الملعونة ؟  
هل انجو من النظرات وكلمات السخرية ؟ وهل أصبح بعد فترة مثل  
أولئك الأغنياء الذين يملكون خيام الحديد ويتحركون بتلك الطريقة  
كانتهم أفواج الجراد بحثا عن الغزال ؟ »  
مرت هذه الأفكار وأخرى غيرها في رأسه . طردها بقسوة . كان  
واثقا أن طلقته لن تخيب . وكان واثقا أكثر من ذلك أن هذا الرهان  
مثل غيره سيتحول الى قصة جديدة تضاف الى عشرات القصص التي  
يروىها عنه الناس ، ويرفض أن يؤكدوا أو ينفيها ، لكنه مع ذلك  
يشعر بنوع من الحزن الغامض .

خيمة الحديدية تتحرك ، الخيام الأخرى تحرك بعضها وبعضها  
ينتظر شيئا ما ليتحرك ، وموعد اللقاء بعد الغروب ، عند الكيلو المائة  
والستين . ان كل شيء تغير بنظر العنزي . كيف كان يحمل قوسه  
وسهامه ويتحرك .. ؟ متى كان يعود .. والى أى مكان ؟ كانت هذه  
رهانات بينه وبين نفسه ، أما عندما تحول الى البندقية فكان ذلك  
تحديا أكثر مما كان رغبة ، لكنه شعر أن المهارة في الحالتين سلاحه ،  
وأن السلاح الذي يستعمله الصياد لا يشكك بالنسبة له أكثر من  
الفرق بين صيد وآخر .

في لحظات كثيرة وسائق سيارة الجيب يحدو كما لو أنه على ظهر  
بعير ، شعر العنزي ان ما يحصل أمامه أكثر مما يطيق ، فأحس بالندم  
وسيطر عليه صمت حزين . لم يتعرض في حياته الى تجربة من هذا  
النوع ، أما حين قدم له الرجل الذي كان يجلس في المقعد الخلفي  
المنظار المقرب ليستعين به ، نحاها بيده دون أية كلمة . كانت عيناه  
تغزلان الافق ، تدوران مثلما تدور عينا صقر ، لكن والسيارة تقفز مثل  
الجرادة ، وتغير سرعتها مثلما تفعل الرياح أيام السعوم ، فقد أصابه  
الدوار ، وتأكد انه غير قادر على أن يفعل أى شيء مثلما تعود . ان حبة  
السندقية أصفر من القمحة الحقيقية ، وأى اهتزاز مهما بدا صغيرا ،  
يغير كل شيء . تذكر حين كان يرفع الرصاص الفارغة من قاعدتها  
المعدنية من تلك المسافة الكبيرة ، تذكر حين كانت تعلق الرصاصات

الفارغة بخيط وكيف يتناولها الواحدة بعد الاخرى بترتيب مذهل ، أما حين وضع الابرة على مسافة عشرة أمتار فلم يرها أحد غيره ، ولما ذهبوا ليروا ان كان أصابها أم لا ، قال بعض الماكزين ان الريح التي مرت الى جانبها انتزعتها من حبة التمر التي علقت بها . تذكر العنزي حسنة الذكريات والسيارة تقفز بتلك الطريقة العجيبة . كان يريد أن يتأكد من شيء واحد ، أن يثبت البندقية على كتفه دون أن تحركها أية قوة . لكن والسيارة توالى هذا الركض بجنون فكان يمتلئ شكا لحظة بعد أخرى ، ولولا بقية من خوف أو حيلة ، ولولا الكلمات الكبيرة التي سمعها في الليلة الفائتة ، والتي قالها هو نفسه . لتراجع . لا أحد يستطيع أن يجبره . لا أحد يستطيع أن يقنعه ان هذه طريقة الصيد . لكن حصل كل شيء فجأة ودون تفكير أو ارادة . والآن تنترسه الشكوك ، يتشبث به الحزن ، يحس الغبار يدخل عينيه ويحجب عنه الرؤية ، أما كلمات الذي يجلس وراءه ، فقد كانت أشبه بالأصوات المشيئة ، كان يسمعها ولا يفهمها . كانت فجأة تموت . أما عيناه اللتان تغزلان الفضاء بحثا عن الطريدة فكانتا تلمعان بشيء أقرب الى الظلمة .

انه يعرف أماكن تلك الوعول القسوية . وحين كان يركض بين الصخور . قريبا من الخبرة ، كان لا يترك طلقة تغادر البندقية قبل أن تشرب تلك الوعول ، ثم ترفع رؤوسها وتشمم الهواء . كان يتخير أكبرها وأقواها ، حتى اذا تملى من المنظر تماما خرجت الطلقة بتلك الطريقة العجيبة لتقتل . لتقتل على الفور .

الآن ، في هذه اللحظة تغير كل شيء بالنسبة له . لا يعرف متى يضرب ، وهل يحتاج له لحظات التجلي السميكة المليئة باللذة والخطر . . . انه يخاطر ولا يعرف ماذا سيحصل .

قال لنفسه : العنزي هذه المرة لا يصيد ، وإنما البدوي الذي أفسده الاجانب يفعل ذلك ، انه يقود خيمة الحديد بطريقة رعنة ، مرة يتركها تطير ، مرة يتركها تدرج ، مرة يتركها تجن ، ومرة يتركها تموت حين يطفى محركها لكي يخلق سكونا للحظات لعل وعلا ينفجر في حسنة المسكينة .

انقضى العصر كله ، مالت الشمس نحو الغروب ، هبت نسائم فيها رطوبة ، تنفس العنزي ملء رئتيه ، لكنه شعر أن الحزن يلفه تماما ، قال لنفسه : « مثل كل مرة ، العنزي لا يخيب » . قال هذا ليخلق ثقة أخيرة في نفسه ، وليقاوم الشك والعذاب اللذين يتفتتان في دمه ذات لحظة ، قبل الغروب بقليل ، في لحظة اتحاد كل الاشياء :

الغبار والامتداد والشمس المتوهجة قبل سقوطها مع الرياح الطرية  
التي انسفحت فجأة لتخلق رائحة خاصة تملأ الافق ، في تلك اللحظة  
رأى العنزى الوعل • صرخ بعذاب :  
- هذا هو !

التفت السائق برعونة في كل الاتجاهات ليرى ذلك الوعل الخرافة  
الذى تحدث عنه العنزى • لم ير شيئا • انعطف نحو اليمين بخيمة  
الحديد انعطافة حادة لعله يرى ، لكنه لم ير شيئا • الذى كان يجلس  
فى الخلف مد اليه المنظار كمساعدة أخيرة ، لكن العنزى أبعد به بنوع  
من القسوة والاحتقار • قال السائق :  
- لا أرى شيئا !

- الى اليسار قرب التل !  
استدار بسرعة ، أقرب الى الحماقة ، نحو المكان الذى أشار اليه  
العنزى • لم ير شيئا • أوقف السيارة ومسح جنبه ونفض الغبار عن  
عينيه ، نظر بامعان ، ولما لم ير شيئا قال للصياد المرافق : « أعطنى  
المنظار • »

حين وضعه على عينيه وأدار رأسه نصف دورة كبيرة رآه على البعد •  
وبسرعة شغل السيارة مرة أخرى وانطلق مشعل الريح • فى تلك  
اللحظة كان العنزى متأكدا انه خسر كل شيء •

كانت السيارة بانطلاقها المرعوب مثل ذئب جريح • كانت تتلوى  
وتقفز كأنها الكرة • والعنزى الذى أمسك بندقيته بقسوة ، شعر أن  
كل شيء يهتز ويمكن أن يتمزق • كان يريد هدوءا من ذلك النوع الذى  
اختبره وحاشه طويلا • كان يريد أن يشعر بلذة الاختيار ولحظة  
التصويب • وهو الآن يفقد كل شيء : الاستقرار ، اللذة ، الاختيار •  
لا شيء سوى هدير السيارة والغبار ، وذلك الدوران الاهوج ، والوعل  
يغيب ويظهر كأنه السراب ، والسائق البدوى الذى ظل يحدو طوال  
الفترة السابقة أصابه نوع من الجنون • كانت تخرج من فمه أصوات  
عمياء ، وكان يصرخ بشتائم نابية ، وكان يعاكر الريح •

الغشيان يملأ حلق العنزى ، عيشاه تغيمان ، صمته يقسو ويشتمد حتى  
يصبح مثل حجر فوق صدره ، أما محاولاته فى أن يسيطر على نفسه  
أو على الآخرين فقد انتهت الى الفشل • انه عاجز تماما •

مطاردة عجيبة لا تحصل فى الحياة الا مرة واحدة • وتلك الخيمة  
الحديدية التى سمع الكثير عن قوتها فى اجتياز كل الصعوبات وجدها  
أقرب ما تكون الى صخرة تتدحرج بطريقة عمياء ، دارت حول التل



مرة. دارت مرة أخرى ، والوعل الذى يبدو ويختفى لا يعرف الى أين يذهب أو كيف يستطيع التخلص من هذه النار التى تحيط به من كل جانب .

يقترّب ، يبتعد ، يظهر ، يتلاشى . لكنه دائما يركض فى محاولة لان يهرب من النار التى تحاصره . والعنزى ، الذى كان يتحدث عن الغزلان مثلما يتحدث عن النساء ، وجد نفسه عاجزا ومسلوبا ، اما البندقية بين يديه فقد أصبحت مثل جثة ثقيلة لا يعرف كيف يحركها أو يتخلص منها .

قال لنفسه : آخر يوم من أيام العمر !  
اما حين سمع الصياد وراءه وهو يصرخ :  
- عنزى .. استعد .

فقد شعر أن مخرزا يدخل جنبه . شعر أن التحدى لا يزال قائما ، وان فرصته الاخيرة تقترب وتتلاشى فى كل لحظة . وذلك البدوى الذى يتحدث بصوت مجنون كان هو الذى يصيد . كان يسرع مثل الريح ، يصرخ ، يشتم ، وكانت هذه الاشياء تجعل العنزى يفقد ارادته وقوته وأخيرا قدرته على التصويب ، ارتطم رأسه بالزجاج الامامى وحط طرف المقعد جنبه ، والوعل يركض بسرعة ويتلفت بطريقة مذعورة لعله يجد طريقا تجنبه حصار النار المجنونة .

فى لحظة ما ، والاصوات تحاصر العنزى وتفتك به ، شعر أن يدا غير يده ترفع البندقية ، وشعر انها تستند على كتفه ، وفى لحظة الصراخ والتحدى والذهول كانت طلقتة .

كانت الشمس على وشك المغيب ، وكان محرك السيارة قد انطفأ . وكانت العيون الست تتجه الى ذلك المكان الذى سقط فيه الوعل ، واذا كان البدوى والصياد المرافق ، الذى أريد منه أن يكون شاعدا ، قد نزلا برنة مذهلة ، فقد جمدا الخوف العنزى فلم يتحرك ، لكن والصرخات والاشارات تستفز وتطلب اليه أن يترجل لسكى يرى الطريقة . تحرك ببطء ، نزل ، مشى بهدوء ، لكن بطريقة تختلف عن أية مرة سابقة كانت نفسه تمتلئ بالحزن ، اما حين اقترب كثيرا . ونظر تلك النظرة ، شعر ان الدنيا تضيق وان الظلمة تهبط فجأة . كانت رصاصة ثقيلة خانقة ، لان العنزى الذى قتل عددا كبيرا من الوعل ، لم ير فى حياته وعلا مثل هذا الذى يراه فى تلك اللحظة ، كانت عيناه تتركزان فى عيني العنزى تماما ، وكانت دموع بطيئة ، لكن كثيفة تتساقط . اما رجله اليمنى المكسورة فكانت مثل عصا

قديمة ، وكانت الطلقة قد فتحت نفقاً أحمر مسوداً في الجانب الأيسر  
وكانت قطرات الدم اللزجة الكثيفة تتساقط خيطاً قاتماً تعلن نهاية  
كل شيء .

ولم يستطع العنزى أن ينظر إليه أكثر من تلك المرة ، ولم يستطع  
أن يركب خيمة الحديد في طريق العودة . أما البندقية فقد تركها في  
السيارة ولم يسأل عنها مرة أخرى . ولم يسمع أحد شيئاً عن العنزى  
بعد ذلك اليوم . ومن جديد كثرت الأحاديث عنه وتشعبت واختلط  
فيها الخيال بالواقع ، لكن أكثر الأحاديث انتشاراً كان الحديث عن  
تلك الدموع التي غمرت وجه الصحراء وظلت تنهك قلوب الناس كلما  
جرى الحديث عن هذا النوع من الصيد الذي كان في يوم من الأيام !

انتهى اليوم الاول بالخيبة ، فالرغبات الكبيرة التى عززتها القصص والخيال الجامح المفترس ، ثم الادعية الوثنية التى رددت بأصوات خفية لاهثة وملينة بالابتهال جعلت ذلك اليوم بائسا . أما الطيور القليلة التى نامت بطريقة ما تحت الارجل أو علقت على أطراف السيارة فكانت إشارة أخيرة أن الحزن يتوغل فى القلب ويستقر هناك .

لا يمكن تذكر الاصوات التى انطلقت فى الليل ، اختلطت بالاكاذيب والخيال وعذاب القهر ، اختلطت بالخيبة حتى لم يكن هناك أحد يسمع أحدا . وعندما نام الرجال كان الغيظ ينتظر الفجر مع ثقة بإيمان فى القلوب أكثر من الكلمات التى ترددها الافواه ان الطلقات لا يمكن أن تنغرز الا فى الرؤوس أو فى الجنبات اليسرى ، لان حماقة اليوم الاول والسرعة وعشرات الاوهام الصغيرة الاخرى كانت تؤكد ان الخطأ أقرب الى الجريمة ، وان السرعة عدو الانسان الاول ، أما عدد الطرائد التى أصيبت فى أماكن غير قاتلة فكانت كثيرة الى درجة ان لا أحد يتذكرها .

كان أكثر الصيادين شعورا بالخيبة ، وكان أكثرهم حقدا وجنونا . لا يمكن أن يكون فاشلا بهذا المقدار ، وليس مبتسدا أو هاويا حتى يسمح لنفسه أن يكون هزاة أو ثانويا فى هذه الرحلة السنوية التى استعد لها فترة طويلة ، وانتظرها فترة أطول . كان يريد أن يثبت لنفسه ، قبل أن يثبت للآخرين ، تفوقه الساحق وامتلاكه النهائي لما يريد ، والآخرين الذين نظروا اليه بتقدير يمازجه الحسد اعتبروا هذه الرحلة مقياسا لتطور امكانياته فى الصيد خلال سنة كاملة ، خاصة وان هذه السنة كانت حافلة بالرحلات والاكاذيب والمهارات المتفجرة الغامضة التى يرددها كثير من الناس . وهذا الاختبار الجديد يكون حقيقيا ومؤذيا حين يأتى الغرباء خاصة من الهواة . ان نظرة هؤلاء فيها من التقدير والشك مقدار متساو ، ويتصرفون بكثير من الخوف والتحدى والسخرية بعض الاحيان ، حتى ان كلمة تصدر فى غير وقتها أو فى غير مكانها تقتل أكثر من الطلقة .

هل نام تلك الليلة ؟ هل حلم بالوعل الكبير الذى يسقط من الضربة الاولى ؟ هل يلتزم بتلك القاعدة البائسة التى وضعها شعارا للآخرين

قبل أن يضعها شعارا لنفسه : الوعل . . ما أريد ؟  
شيء ما حصل فى تلك الليلة .

وإذا كان النوم ليس مجرد راحة أو حاجة . بالنسبة للصياد . فإنه يجعل صيادا ظافرا . وآخر فاشلا ، ويجعل يدا ترتجج وأخرى تصمد كالصخرة . لقد رأى نفسه فوق تلال من الوعل . كان يضع قدمه بعدم اهتمام على قرن الوعل الكبير الذى يقود انقطيسه ، ويتحدث بإيجاز يصل حدود الازدراء مع ذلك الصياد المبتدىء الذى اختار أن يكون رفيقا ورقيبا له ، كان ينظر الى الآخرين بنوع من الزهو المتواضع ؛ شيء ما حصل فى تلك الليلة .

كان ينتظر الفجر لينطلق ، لكن الفجر لا يأتى ، والرجال لا يزالون نائمين . مر على السيارات الثلاث وتأكد من ذلك ، اما صمت الصحراء فكان عميقا مسيطرا الى درجة أنه ينزل الى قلب الانسان خوفا واتعادا مع شيء ما . وحين ايقظ رفيقه فى الرحلة ، وبعد أن انتظر هويلا ودخن عددا من السجائر ، كانت الساعة قد تجاوزت الثالثة . اذا تحرك فى هذه الساعة يمكن أن يدرك المكان الذى أخطأ فيه الوعل أمس مرتين ، كان مكانا وعرا ، حتى ان السبيلورة رفضت الاستجابة أما الوعل الذى وقف بعيدا ونظر بتحد ، فقد شكل نهاية لكبريائه ، انه الاحتقار الاسود .

غيش الفجر ، مكان الامس . الوعورة ، الحقد ، التحدى ، النظرات المصقولة التى تروى كل شيء فى لحظة ميلاده الاول . . والحقه مرة أخرى !

لحظة انهيار الظلمة ترافقها لحظة انهيار أضواء السيارة ، قبل أن تولد الشمس ، قبل أن تستيقظ ينبثق نور لامع من مكان ما يجعل الرؤية ناصعة واقرب ما تكون الى نور داخلى وهاج . دار دورة كبيرة بمكر حاقد كان يريد أن يصل هذا المكان مع الجماعة النور ، وقبل أن تشرق الشمس ، انه يعرف الاماكن كما يعرف باطن يده ، ويعرف كيف يسقط على الوعل اللثيم كما تسقط الظلمة أيام الشتاء .

اتسع النور ، واتسع المكان ، وفى هذه الجماعة المضيفة الصاخبة رآه ، كان منظره يشبه النور ويشبه راحة اليد ، كان الوعل الذى تحداه فى الامس .

الوعورة سد للثنين . انه بمقدار ما تعطيه حرية الحركة تعطى الطريدة حرية الهرب والتخفى . وفى الغبشة الرمادية الباردة المنعشة



اللامعة ، وبين صخرتين وآه ، كان ينتظر هذه اللحظة ، كان ينتظرها بلهفة أقرب الى العشق ، نسي ضربات الرأس والجنبات ، فقط يريد أن ينتقم ، وانها اللحظة الوحيدة التي لا تأتي الا نادرا . خفف سرعة السيارة . . أطفأ محركها . انزلق يهدوء . أصبحت المسافة قصيرة ، ترجل من السيارة . . ارتجف قلبه وهو يتقدم ، أصابه الشك ان الوعل مجرد صخرة أو انه يتخفى بطريقة شيطانية . تقدم أكثر أصبحت المسافة لا تتعدى الثلاثين مترا . انها المسافة التي يريد لها ، يتمناها .

في لحظة ما ، لم يعد يطيق صبرا . ان تحدى الوعل أكثر مما يحتمل يجب أن يلقنه درسا لا ينساه ، ويجب أن يمتحن جدارته أمام نفسه قبل أن يمتحنها أمام الآخرين .

ليس مهما ان كان التماع النور هو الذى جعله يرى بهذا المقدار الشاسع ، وليس مهما أن تكون الضربة فى الرأس أو فى الجنبات الايسر ، لان المسافة حين تصبح بهذا المقدار تكون قد كثفت الحقد كله وجعلته يستقر فى القلب تماما .

فى الغبش ، فى التماع الضوء ، فى سواد الحقد ، كانت الطلقة . كان دويها صاخبا فتاكا كاويا . سمع صرخة صغيرة ، ثم رأى الطريدة تلتوى قليلا . تأكد فى تلك اللحظة من الظفر . شعر بنشوة جامحة أقرب الى الالتهاب . كان يريد أن يكون الى جانبه عشرات الناس ليروا المهارة ، الدقة ، الفناذ . انها الطلقة الاولى فى عتمة الفجر . التماعه ، ولا بد أن تستقر فى المكان الذى يريده . لو لم تستقر فى الرأس ، فى الجانب الايسر فلا يمكن أن تلتوى الطريدة بهذا الشكل وبهذه السرعة .

مشى يهدوء زاهر ليصل ممثلا باللذة والعنفوان . قال لنفسه ، النوم والاحلام وآلاف الاكاذيب الاخرى أوهام الخائفين والخائنين . تقدم أكثر . تقدم أكثر . . والسمع الكون كله ، كان النور مليئا بالبياض الناصع ، مليئا بالصفاء الذى يجعل الرؤية أقرب الى خشمونة الملمس . .

فى الخطوة الاخيرة ، قبل أن يلتقط بنظراته الملتهبة قرون الوعل ، كان أجدى الصغير قد تدلى رأسه وقسم صغير من جسده ، رأى الام تميل ناحية اليمين قليلا ، لكن تحاول بقوة أن تدفع المخلسوق الجديد الى النور ، تحاول أن تخلصه منه قبل الموت . ونظرت اليه . . كانت عيناها مليشتين بالدموع !

من الامور التي بدت عجيبة لسكان الحي ، قريبا من بستان الاناث ، والتي لم يالفوها ولم يروا مثلها من قبل : ان كلبة في البستان ، كانت تخوض صراعا من نوع غريب ، وكان هذا الصراع يقع مرتين في اليوم ، مرة في الصباح الباكر ومرة قبيل الغروب . والذين لم يروا منظر الصراع وسمعوه من غيرهم ، لم يصدقوا اول الامر ، اذ تصوروه عارضا وشاذا ولا يمكن أن يتكرر . لكن حين أخذ يقع تحت ابصارهم ، وبدأوا يتابعونه باهتمام ، ثم لما بدأوا يعرفون متى يقع وكيف يبدأ وكيف ينتهي ، أصبح الامر مثيرا ومدة لتعليقات كثيرة ومتناقضة . فسر أغلب الناس ذلك العداء بين الكلاب والغربان بأنه عداء غريزي قديم وراسخ ، وفسره آخرون انه مجرد دعاية يلجأ اليها هذان الغرابان ليكسرا رتبة الحياة ، ولكي يمارسا رياضة من نوع خاص .

أما كيف وقع الامر في البداية فاقرب ما يكون الى الخيال : فقه ذكر بعض الذين شهدوه ان الغرابين كانا ينتقلان ، كمادتهما ، بين شجرة وأخرى . كانا يطيران طيرانا ثقيلًا أخرق ، وفجأة عوت عليهما الكلبة ، وخلال فترة قصيرة بدأت تلك المعركة العجيبة . كان أحد الطيرين يأتي من المقدمة وما يكاد يسف ويقترب وتحاول الكلبة القفز عليه ، حتى يأتي الآخر من الخلف وينقرها من ظهرها ، وحين تلتفت يأتيها الاول من المقدمة وينقرها في رأسها ، أو في مؤخرة الرقبة . قال الذين رأوا ذلك ان الامر لن ينتهي الا بنزف الدماء وبقتضائه أحد الخصمين على الآخر . وظن بعض الناس ان الامر لن يطول حتى تلتقف الكلبة رقبة أحد الغرابين وتمزقها ، لكن اللعبة امتدت وطالت وتخللتها براعة لم يتصورها أحد ، لان مسافة الامن التي حافظ عليها الغرابان كانت من الدقة الى درجة تضطر الكلبة في أحيان كثيرة الى العواء أو الى الدوران السريع لكي لا تقع فريسة لغدرهما . والغرابان اللذان كانا ينقضان بتلك الطريقة الذكية الماكرة لم يكسونا في عجلة من الامر . كانا ينتظران وقتا كافيا ، وقد حذا على غصنين متقابلين ، حول الكلبة ، حتى اذا تعبت من الدوران المجنون أو النباح واستقرت على وضعية معينة بدأت اللعبة من جديد .

هكذا بدأت اللعبة أول مرة ، ومثلما بدأت انتهت بشكل مفاجيء ، وقد كانت هذه النهاية مخيبة لكل أمل . أما حين أخذت تتكرر ، وبأوقات تكاد تكون ثابتة ، في الصباح الباكر وعند الغروب ، فقد اتارت الكثير من الدهشة والاستغراب ، وبدأت تجمع الناس بطريقة غامضة ، والناس الذين فتتهم الغرابية في البداية لم يلبثوا أن انقسموا الى فريقين ، كل فريق يناصر أحد الخصمين ويريد أن يقضى على الآخر أو يوقع به خسارة حقيقية . ومن أجل ذلك أعطوا للكلبة اسما ، سموها مرجانة ، أما الغرابان فلم يكونوا قادرين على أن يسموا كل واحد منهما باسم مستقل للتشابه بينهما فاطلفوا عليهما الغارة .

وإذا كانت طبيعة الحياة قريبا من بستان الاغا تتبع لعدد محدود أن يتابع هذه المعركة في الصباح الباكر ، فإن عصاري أيام الربيع كانت حافلة : كان جميع سكان المحلة يحرسون على حضور هذه المعركة ويتوقعون نهايه ما لها . فكان الاطفال يرابطون منذ العصر ويراحنون ، وكانت النسوة يأتين حاملات معهن الاطفال الرضع وأباريق الشاي ، وكان الرجال آخر من يأتي . وفي كل يوم بعد العصر وقبل الغروب ، ويمكن لا يختلف الا قليلا ، تبدأ المعركة . مع المعركة ترتفع الاصوات وتتعالى الهمهمات . ويصرخ أحد الرجال ، غارة ، فيثير هذا الصراخ حماس الاطفال وصخبهم ، وما يكاد ينقض الغرابان حتى يدوي صوت : مرجانة ، لم تكون مرجانة بحاجة الى هذا التنبيه ، كانت تقف مترقبة حذرة ، وفي لحظات معينة تتظاهر انها لا تسمع ولا ترى . لكن ما تكاد تسمع أحد الغرابين يسف قريبا من الارض ، ويمكن قريب ، حتى تقفز تلك القفزة الشيطانية ، ورغم القوة والاندفاع القوي يكون الغراب قد ارتفع الى المسافة التي تحفظ له الامن ، وتبدأ بعد ذلك اللعبة بين صرخات الاطفال وترقب الرجال وخوف النساء . كان كل واحد ينتظر شيئا ما ! وكان كل غروب يضع نهاية لهذه اللعبة ، لكن بطريقة استعراضية مأكرة ، اذ يتظاهر أحد الخصمين انه هزم ، وان المعركة لابد أن تشتعل مرة أخرى في وقت لاحق .

على هذا النسق الممتع كانت تجري المعركة طوال أيام الربيع المبكر . وإذا كانت حماسة الرجال قد فترت ومشاركتهم في متابعتها تباعدت بمرور الايام ، فإن الاطفال لم يتوقفوا عن ذلك يوما واحدا .

ذات يوم ، وبشكل مفاجيء انتهى كل شيء ، غابت الكلبة ، ولم يعد أحد يشاهد الغرابين . قال بعض المسنين : « الغرابان مع بداية

فصل الحر تذهب الى اماكن رطبة ، ولا بد أن يكون هذان الغرابان قد رحلا الى تلك الاماكن » . ويضربون بثقة : « الغرابان تفعل ذلك دائما » .

وقال رجال آخرون . . « حيوانات لا يعرف الانسان متى تأتى ومتى تذهب ، متى تلعب ومتى تتوقف عن اللعب . » وقال غيرهم : « سئمت الكلية هذه اللعبة ، لان نقر الغرابين ونعيقهما ولدا فيهما جروحا وخوفا . . ولم تعد تطيق » وقال الاطفال « يجب أن نذهب الى البساتين المجاورة ، لان مثل هذه اللعبة لا يمكن أن تنتهى أبدا » .  
هكذا قال الناس ، وبدأت صورة مرجانة تغيب . أما اذا رأى أحد غرابنا فى مكان ما ، فقد كان على يقين أن هذه الغرابان التي يراها الآن ليست تلك التي كانت فى بستان الاغا .

فى أول أيام الصيف رأى بعض الاطفال مرجانة . كانت فرحتهم حين راوها لا توصف . نقلوا الخبر الى المحلة بسرعة ، وتصوروا أن أياما جميلة مثل تلك التي مرت لا بد أن تتكرر . أما رؤوسهم فقد بدأت ترتفع الى هامات الاشجار وسطوح الابنية تبحث عن الغرابان . ولم ير أحد من الاطفال البطن المتهدل أو الائداء الثقيلة لمرجانة ، وبعد يوم أو اثنين رأى الاطفال مشهدا عجيبا : راوا مرجانة ووراها خمسة جراء كانت أشكال الجراء المديبة المكتنزة تثير عواطف الحب والاعجاب والغموض . من أين أتت بهذه الجراء ؟ أين كانت ؟ أما حين نقلوا الخبر الى الكبار ، فقد هز هؤلاء رؤوسهم دلالة المعرفة ، وبدوا كأنهم يعرفون كل شيء !

خلال فترة قصيرة بدأ الغرابان بالظهور مرة أخرى . واذا كان الاطفال قد عبروا عن فرحهم دون تحفظ وبهياج ، فإن الكبار بدوا أكثر اتزاناً ، ونظروا الى كل ما حولهم بتأمل ، وفكروا فى الحياة والموت ، وفكروا بالاشجار والطيور ، لكنهم كانوا يتوقعون أن يروا فى وقت قريب مرجانة وقد أصبحت أكثر ثقة وخوفا فى وقت واحد . كانت حول الصغار تسير بأبهة وكبرياء ، وكانت تعوى عواء حارا اذا اقترب أحد منهم . أما رأسها فلم ترفعه لترقب الغرابين ولم تأبه لصرخاتهما وهما يتطايران من شجرة الى أخرى ، وظل الغرابان بعيدين يرقبان مرجانة وجراءها ، ويرقبان البشر ، ولا يفعلان أكثر من ذلك ! الانتظار يزداد حدة ، والذين لم يحرصوا على مراقبة المضاركة التي كانت تجرى فى العصارى وجدوا أنفسهم دون وعى ، لكن بتصميم ، يستيقظون مبكرا ، يعرون بستان الاغا ويتوقفون طويلا لعل شيئا ما



يقع . كانوا يتظاهرون انهم يرقبون مرجانة وجسراءها ، وفي بعض الحالات تراهنوا على الجراء : أيها الذكور وأيها الاناث دون أن يقتربوا وتراهنوا أيضا : أيها سيكون قويا وأيها سيكون ضعيفا . وهذه المراهنات كانت تخفى شيئا وراءها : متى تقع المعركة من جديد ، كيف يتصرف الغرابان ضمن هذا السرب من الكلاب ؟

ومثلما حصل في المرة الاولى ، بعد اختفاء مرجانة والغرابين ، ونتيجة للسلام الذي بدأ يغطي بستان الآغا ، دون مفاجآت من أى نوع ، فتر حماس الكبار ، نساء ورجالا ، ولم يبق الا الصغار .

في أحد أيام حزيران ، كان النهار في بدايته رطباً مشعاً ثم بدأت حرارته تقوى وتشتد . في ذلك اليوم ، سمعت سبع طلقات ، وقال الصغار ، فيما بعد ، ان شرطى البلدية قتل الكلاب . قتل مرجانة أول الامر ، ورغم ان الطلقة استقرت في جانبها فقد أطلق عليها مرة أخرى ثم قتل الجراء الخمسة .

في اليوم التالي بينما كانت عربة القمامة تحمل جثث الكلاب الستة ، كان الغرابان يحومان حول العربة وينعقان بصرخات قاسية ، وقيل ان الحمار الذي كان يجر العربة أصابه الفزع وقلب كل شيء . وقيل أيضا أن الغرابين لم يتوقفا طوال ذلك اليوم عن النعيق ومتابعة العربة . . . والشئ المؤكد انهما لم يظهرا أبدا بعد ذلك اليوم في بستان الآغا .

كان يوما عصبيا حين جاء . جاء من مكان بعيد ، قطعوا به مئات الكيلو مترات حتى وصل .

في الزاوية قضى وقتا طويلا . لم يشترك مع الذكور الاخرى في استعراض ريشه البنى المرقط الابيض ، أما ساقاه اللتان كانتا تميزانه عن الطيور الاخرى ، فقد بدتا ثقيلتين وعديمتى الجدوى ، وطمس الكثيرون أن الثمن الذى دفعه القى في البحر .

لماذا يمتلك الانسيان هذا المقدار الكبير من البلاهة ؟ ولماذا يقطع المسافات الطويلة من أجل شيء لا يستحق ؟

تردد هذان السؤالان ، وغيرهما الكثير ، في القرية . أما هو فكان يمتلئ اصرارا غامضا ان شيئا ما سوف يحصل ذات يوم . لم يكن يدري ما هو هذا الشيء ، وكيف سيحصل ، لكنه كان واثقا الى درجة انه رفض الاجابه عن أى سؤال حول البثن الذى اشترى به الطير ، ورفض أكثر من ذلك أن يتحدث عن مزاياه . أما في وقت سابق فلم يترك أحدا الا وتحدث معه وأطال كثيرا ، الى درجة ان المهرجان الذى تعودت القرية أن تقيمه في الايام المبكرة من الربيع جعل الناس تسرف كثيرا في تصور شكل الطير الذى سيأتى والبراءة التى ستبدو في كل تصرفاته ، أما أصحاب طيور الحمام في القرى المجاورة فقد خافوا خوفا حقيقيا ، رغم ان الرهان كان واضحا وحاسما :

« اذا استطاع ذلك الطير الذى دفع ثمنه محصول سنة كاملة ان يلتقط أكثر من انثى أو اثنتين فحرام علينا تربية الحمام » .

في الزاوية قضى وقتا طويلا ، وقع الددم ، وجاءت بعده المראה ، أما شعور الخديعة فقد أصبح مسيطرا « لا يصدق هدى الدهر مربى حمام أو صياد » .

هل يمكن أن يحصل كل هذا ؟

في أحد الايام نفش ريشه ، في يوم آخر ترك الزاوية وجلس في شمس الربيع الدافئة ، في يوم ثالث قرقر واصابه شيء من جنسون وهو يتمشى في القفص الكبير ، أما حين تقرر أن يتركه ليطير فكان هناك خوف حقيقى من أن يفلت ويرجع من حيث أتى ، أو أن يصبح فريسة لطيور الحمام الاخرى . طار وعاد في اليوم الاول . كان طيرانه

مضطربا قصيرا ، حتى انه اثار ضحك الكثيرين ، وتأكدت الظنون  
السوداء التي امتلأت بها قلوبهم ولم يقولوها . أما ذكور الحمام الأخرى  
فقد كانت تنتفض في الشمس ، وتعاكر بقوة لكي تنطلق وتفتشرش  
الهواء ، وكانت تشعر بنوع من التحدي الغامض . وإذا كانت الإناث  
قد حافظت على نوع من التمتع اللذيذ وتحسنت ذكورها بصمت ،  
ونظرت من بعيد الى القادم الجديد ، فان ذلك ضاعف التحدي لدى  
الذكور وقواه كثيرا . ولولا الخوف الغريزي لحدثت أشياء كثيرة .  
في أيام نيسان المتأخرة حصل شيء ما . شيء لا يمكن رؤيته ولكن  
تدركه الحواس بغموض وهو أقرب الى سحر المياه أو هبوب الريح .  
ان أشياء مثل هذه تدركها الحواس فما لو كانت الظواهر لا تنبئ بها  
انتفض . انتفض أكثر من أية مرة سابقة . هاج وقرقر . أما  
مشيته داخل القفص الكبير فقد كانت بداية لعراك طويل . وهذا الذي  
حصل فجأة لم يبق سرا . انتشر كما تنتشر أوراق الخريف . لم يبق  
أحد في القرية الا وعرف أن الديك قد استيقظ في دماء هذا الطير .  
وانه قرر أن يبدأ لعبته الكبيرة .

منذ ذلك اليوم وحتى وقت متأخر لا يبدأ الحديث ولا ينتهي الا عن  
مشيته ، عن طريقته في التقاط الإناث كما يلتقط الحبوب ، وعن تلك  
القوة المليئة بالمكر التي تجعله يقود أسراب الحمام كما لو انه يلعب  
بها أو كأنه يمازح الرياح . ونظرات الذين يرقبون من أسفل هذه  
السباحة المجنونة تمتزج بكلمات الإعجاب .

وإذا كانت الكلمات الجديدة قد اكتسبت ريننا لذيذا في أذنيه ،  
والنظرات أصبحت مشبعة بذلك التأييد الخفي ، فقد أصبح أكثر قوة  
وأكثر قدرة على أن يفعل ما لا يفعله أحد . والرهان الأول لحقه رهان  
ثان ولحقته رهانات أخرى . ولا يعرف الخسارة أو التراجع . كان  
يصل دائما ، قد يصل متأخرا لكنه دائما يصل .

والناس الذين نظروا اليه من هذا الجانب وأعجبوا به كثيرا رفضوا  
أن يتصوروه طيرا مثل باقي الطيور . كانوا يريدون ديكا ، وأبى أن  
يكون الا ما هو ، أما حين رأوه لاطيا في الزاوية الى جانب تلك الحمامة  
الصغيرة ، فقد بدأوا يسخرون :

— « كيف يقبل بهذه الجرباء ؟ » ، لو كان أصعبلا لاختار واحدة  
وأكثر من الجنسيات التي تماثلها لكي تخرج الفروع أقوى من الآباء  
والأمهات معها » ، « انه مجنون مثل مجانين كثيرين » .  
كان يريدونها هي . كان يحب تلك السكينة اللذيذة التي تمنح

لعينيتها شيئا من المسكنة . وكانت رغم كبر جسمها ، صغيرة واقرب الى الطاعة ، أما عندما يريد منها شيئا فكانت لا تعطيه الا بعد أن يتعب ويلهث .

ان شيئا ما حصل في هذه العروق المجنونة . والناس الذين أحبوا طريقته في المشي والطيران ، وبالفحوا كثيرا في تصور قدرته ، ورفضوا أن يصدقوا طريقته في الحياة . واذا كان الشباب في العصور ، توقعوا الكثير منه ، زيادة على المشي بتلك الطريقة المتباهية والطيران الماكر ، وتحديثوا عن ذلك بصوت عال ليلفتوا نظر الصبايا ، فقد أرادوا منه أن يتصرف بفحولة جامحة ، كما تفعل بعض الحيوانات والطيور ، لكي يبالغوا بالضحك ويتكلموا بصوت عال كطريقة اضافية في الاغراء ، لكنه أبى ، ظل يمشي ويطير كما يريدون ، وظل يعيش كما يريد .

والمسنون الذين أبدوا اعجابهم بقوته ومكره لم يستغربوا كثيرا طريقته في الحياة . كانوا يرون ذلك اقرب الى الطبيعة ، وكانوا ينظرون الى أنفسهم !

جاء من نسله افراخ بعد افراخ ، وهذه الافراخ تعلمت منه الكثير ، وتوارثت عنه الكثير . وجاء يوم غيرت القرية اسمها لتصبح قرية « برج الحمام » لان الحمام في القرى الأخرى هجرها ليأتى الى هذه القرية ، وحتى الحمام الأزرق البري الماكر ، الذي تحدث عنه الناس بمرارة لصعوبة الوصول اليه في الآبار العميقة التي يسكنها ، أو في الكهوف القاسية بين الصخور العالية التي يضيع فيها بيضه ، جاء أسرابا ، واحدا بعد آخر ، عن طريق هذه الاجيال الجديدة .

واذا كانت الايام بتواليها المستمر تجرف معها الصخور من أعالي الجبال ، وتسقط أوراق الاشجار ، وتقلع السكينة من القلوب ، فقد جاءت مثل هذه الايام على هذا الطير .

كان وهو يمشي في الشمس الدافئة وينظر الى الاسراب الكثيرة الملونة الغنية المتداخلة الاجناس ، تتملكه رغبة واحدة : أن يستمر في الطيران ، وان يظل الى الابد معلقا بين السماء والارض . وكان يأبى أن يتخلى عن عاداته : عن الطيران وعن الحياة بطريقته .

ذات يوم ، وكان الربيع مرة أخرى ، شعر أن قواه تعاوده أكثر من ايام ماضية ، وشعر انه يريد أن يطير الى أماكن بعيدة ، وكان يريد لها هي أن تطير معه . نفخ ريشه ، دار حولها ، قرقر ، قال لها ان الفضاء المكان الوحيد الذي يستطيع أن يراها فيه ملكة ، ولما رفضت



أن تطير ، همس في أذنها أنه لا يستطيع أن يبقى على الأرض ويجب أن يطير . مشى بإبهة الملوك . بثقتهم . بقوتهم ، ثم انطلق . . دار في الجو دورات كثيرة . دار ونظر إلى الأرض ، وكانت حوالبه الأسراب الكثيرة وهي تطير مفتونة . أنها إحدى المرات التي يشعر أنه امتلك كل شيء . . وحين رجع ، هبط بشقل على السطح ، كان يريد أن تنتظره هناك . أن تتطلع في عينيه لتكشف الآفاق البعيدة التي وصل إليها . الأشياء الرائعة التي رآها ، لكنها لم تكن هناك . استراح قليلا وهبط وبحث عنها . كانت في الزاوية . نفسها التي جلس فيها أول مرة . كانت هناك اقتررب . نظر إليها بتساؤل ، التفت إلى الناحية الثانية . دار حولها ، استدارت ، ودار حولها مرة أخرى . جلب لها بعض الحبوب لتأكل . نظرت إليه بحزن واستدارت مرة أخرى ، وحين خيمت الظلمة هبت معها ريع باردة . اقتررب منها ليدونها ، اقترربت منه حاولت أن تنام تحت جناحيه ، أن تتحد به ، وحين غفا هبت ريع باردة وشعر أنه يقتررب منها ، وأنه يتحد بها . . وغاما . في الصباح ، رفض أن يصدق ، دار حولها ، قرقر أكثر من أية مرة انتفض ، استعمل قدميه ومنقاره ، ضرب جناحيه بالجدار . وحين فتح باب القفص ، بدأت نسمات الصباح تمتلئ بالدفع . بدت ساكنة حين دبت الحياة في كل شيء . دار حولها ، دار مرة أخرى ، لكنها ظلت باردة ، ثم بعد قليل بدأت تجف . خرج الصغار والكبار ، وظلت في مكانها ، حين جاءوا نظروا إليها بأسف ثم أخرجوها من هناك ، مشى وراهم حتى نهاية القفص ، أما حين نظر في عيونهم ، وامتلا بتأكيد أخرس فقد تراجع بنعير إلى الزاوية نفسها . وفي الزاوية نفسها ، بعد ثلاثة أيام ، حملوه من هناك . كان يابسا وتساقط منه ريش كثير من العرف والساقين وهو يرمى بعيدا .

لا أحد يستطيع أن يؤكد بثقة أصله . يقولون انه ابن ذئبه ويقولون انه كلب من الجبال البعيدة . ويقولون انه كلب مثل باقى الكلاب وليست له أية ميزة . ولكى يثبتوا ذلك يقولون : عندما ينبع فان ثباجه اقرب الى الذئب . أما اذا صمت وارتكن زاوية فى الظل فيقال : « غدار ، ولا يدري أحد متى يجن » . وحين يختلفون فى تحديد أصله ومزاياه ينتهون الى تلك الكلمات المزدرية التى تعود عليها :

كلب ابن كلب . . . ولا شيء غير ذلك !

كان منذ البداية كثير الحركة ، سريع الهيجان ، أما أذناه المتهدلتان فلم يتصور أحد أنهما تقفان فى مقدمة رأسه وكأنهما القرون الصلبه . كان اذا سمع صوتا ، مهما خفى الصوت ، تشرتب أذناه بطريقة تتميز بالعجب ، أما عيناه فكان فيهما حول أو بقايا دموع ، حتى يظن من يتطلع اليه أن غباشا يمنعه من الرؤية ، وقد وصف أحد الرعاة الكلب بأنه « اعمى ولا فائدة منه » وقال آخر « ان له أنفا يشبه أنوف كلاب الصيد » .

تبر بسرعة ، وأكثر مما توقع له معظم الذين رأوه صغيرا كان يكبر لل يوم ، وكان يصاب بلحظات طويلة من الجنون ، ولا أحد يعرف متى أو لاي سبب . وفى بعض الاوقات كانت الشكوك تراود ذلك الشيخ الذى اختاره ليكون صديقه فى هذه الغلاة الكبيرة ، لماذا اختاره من بين ستة جراء ؟ ما الذى أقنعه انه أفضلها وانه أصلحها له ؟ ان شيئا ما دخل فى قلب الرجل فجأة . نظر الى الجراء ، واحدا بعد آخر ، قلبها ، واختاره . لم يكن أكبرها أو أكثرها وسامة ، ولكن شيئا ما قال له أن يختاره .

لم يعطه فى البداية أى اسم ، ولم يمهل سوى ثلاثة أيام قطع بعدها الجزء الأكبر من ذيله ، لكى يكون أكثر شراسة ، كما سمع وعرف من أهل القرية ، أما مسألة تدريبه على أن يكون معه وأن يسمع كلماته ويهيمها فقد استغرقت زمنا طويلا !

فى وقت متأخر أصبح اسمه الصل . وقد انزلق عليه هذا الاسم

بشكل خفي وغامض . أما الاسماء الاخرى : المقطوع ، الاشهب ، الاعور ، الجنى . فقد تراجعت واحدا بعد الآخر حتى استقر على هذا الاسم ان حياة الكلاب وتصرفاتها من الغرابة الى درجة تثير في نفس الانسان اعظم الاسئلة وأخطرها !

لم يتعود بسرعة ، لكن عندما بدأ يتعود استقرت تلك العادات في عقله بشكل أقرب الى الغريزة . . أما الكلب الآخر ، والذي كان يكبر الصل بسنتين فلم يعد شيئا بالنسبة للشيخ بعد أن بلغ الصل شهره الثامن . بدأ أكبر حجما وأكثر قوة وانتباها ، وبدأ وكأنه مسئول عن كل شيء ولا يثق الا بما يفعله . ربما كان الدافع في ذلك الزحف الملعون الذي يرميه في مقدمة شلعة الغنم بعيدا عنها ، لكن في موقع يراها كلها .

ينام عند بوابة الحظيرة ، وهذا المكان اختاره لنفسه ولم يختاره له احد ، وكان قبل أن يطلع الفجر ، وبطريقة عجيبة ، يبدأ تلك الحركات الرياضية المضحكة : يزحف على بطنه مسافات طويلة ويداه ممدودتان وتشكلان مجاديف قوية تسحبانه بألية سريعة ، وبعد تلك الحركات يبدأ يدور دورات سريعة أقرب الى الجنون . كان يدور حول نفسه ، وكأنه يلاحق ذيله \* وكلمة رأى الذيل المقطوع يتعمد ، يسرع في دورانه ، وكأنه سيدركه في اللحظة التالية ، وإذا كان الشيخ قد أحبه بسبب غامض ، فإن هذا السبب ذاته جعله شديد الاقتناع بأهميته وقدرته ، رغم ضحكات السخرية التي كان يطلقها الذين يرونه يدور بتلك الطريقة . أما الهمسات فقد تزايدت لتصبح حديثا عليها واضحا : ان صاحب الغنم سوف يستغنى عن الشيخ بعد أن أصبح عاجزا ، وبعد وقوع حوادث سرقة أو ضياع متكرر .

حياة الشيخ والصل تكتسب بمرور الايام تلك الخاصية النادرة ، والتي قلما تجتمع لاثنين ، حتى لو كانا من البشر : يتحدثان ، بينهما بعضهما بأقل الاشارات وأكثرها خفاء ، يعرفان متى يجب أن تبدأ الرحلة ومتى يجب أن تنتهى . أما في أيام الشتاء الباردة ، قبل سقوط المطر . وقبل أن تجن الطبيعة وتغير جلدها ، فقد أصبح الصل أكثر قدرة من الشيخ على فهم أسرار الكون ، خاصة وإن الزكام المرافق لخشبة الصدر لم ينته عند الشيخ وإنما أخذ يزداد بتقدم العمر .

وإذا بدا الشيخ أكثر ثقة بنفسه ، وحتى أكثر شبابا ، فقد حرص على ألا يتحدث عن الصل ، لكن والايام تمضي ، والرعاة الاخضرون يتابعونه ويرقبونه ، اكتشفوا فيه صفات لا تتمتع بها كلاب الجراسية

الآخري ، • كان قليل الحركة ، كثير الصمت ، وكان حازما الى درجة ان طريقته في النظر الى الغنم المتأخرة أو دفعها اتسمت بالرهبة والخوف . لكنه لم يكن يفعل ذلك الا في الحالات النادرة ، وإذا تعودت معظم كلاب الحراسه أن تقف على جوانب الغنم أو في مؤخرتها لتحرسها وتدفعها ، فقد كان الصل يفضل البقاء في المقدمة ، ليس في أى مكان من المقدمة ، وإنما في مكان مرتفع ، وعلى مسافة بعيدة نسبيا . وهذه الطريقة التي أخافت الشيخ في البداية وجعلته شديد العذر من « ابن الملعون » ، لانه في بعض اللحظات يذهب الى مسافة أبعد مما يرى الشيخ أو يطبق - هذه الطريقة جعلته يكرر أكثر من مرة أن يتخلص منه ، لان الغنم تخاف الصيوت ، وتخاف من تلويحه اليد ، وتخاف أيضا من شراسة بعض الكلاب وهي تعضها من أرجلها أو جنوبها لتدفعها الى الحركة أما أن يكون الصل على هذه المسافة ، وينظر الى القطيع هذه النظرة المتكبرة فقد جعلت الشيخ يضربه ذات يوم بمقلعه وينزع عينه ، لكن الحياة تعلم الكثير ، إذ لم تنض شهور حتى أصبح الصل كل شيء ، وعندها أصبح الشيخ ينام أو يغيب في أحلام بعيدة ، كان في بعض الحالات ينسى انه راع لقطيع من الغنم ما دام الصل موجودا !

القصص التي تروى عن مكر الصل وقدرته ونشاطه لا تحصى ، وأحاديث الرعاة يختلط فيها الحسد بالتقدير . أما عن المرات التي سافر بها الصل بالطائرة ليعود بقطعان جديدة ، ومن أماكن بعيدة ، فقد أصبحت ماثرا المتندر والسخرية ، ما يكاد ينقلب مجلس حتى تنهال الأسئلة بطريقة مأكرة .

- « من ركب الطائرة أكثر : الصل أم الشيخ ؟ » : « هل يستطيع المختار أن يدفع ثمن بطاقة الطائرة أم يأخذونه مع الصل ؟ » .  
- « إذا كان الصل يركب الطائرات فلماذا تستغربون عندما ترونه مجنونا ومتكبيرا وهكذا » .

انقضت أيام كثيرة ونوع من الحياة أقرب الى اللذة يطغى على حياة القرية ، ويجعل لها طعما خاصا ، حتى وقع ذلك الشيء :  
في أحد الايام اختفى الصل . بحث عنه الشيخ طويلا . بحث عنه في كل مكان . سأل عنه جميع الناس . انتظروا أن يعود في المساء . فكر أن أحدا سرقه أو قتله ، لكن لم يجد له أثرا . ومع ذلك لم ييأس لحظة واحدة . كان متأكدا أنه سيجده ..

في اليوم الثالث ، وفي خبرة من تلك الخبرات التي ترتادها الغنم،



ولا يعرف كيف ألمعت هذه الفكرة في ذهنه هكذا ، لكنه كان متأكدا  
أنه سيجده هناك .

قبل أن يطلع الفجر كان الشيخ بكل قوته يحاول اخراج الصل من  
الخبرة ، كان غارقا في الماء حتى عنقه ، كان رأسه فقط فوق الماء ،  
كانت عيناه حمراوين ولسانه متدليا ، وكان بين الحياة والموت .  
بذل الشيخ محاولات لا حصر لها من أجل اخراجه من الماء ، لكن  
جميع المحاولات انتهت الى الفشل ، اذ ما يكاد يخرججه حتى ينهائي  
مرة أخرى ويغرق نفسه في الماء باستسلام يائس !

عصر ذلك اليوم انتهت محاولات الشيخ . . وانتهى الصل .  
بعد يومين كانت القرية كلها تسير بصمت في جنازة الشيخ !

جاء في كتاب الحيوان للجاحظ :  
 ... وذكر أبو عبيدة النحوي ، وأبو القعطان سحيم بن حفص ،  
 وأبو الحسن المدائني ، وذكر ذلك عن محمد بن حفص ، عن مسلمة  
 ابن مارب ، وهو حديث مشهور في مشيخة أصحابنا من البصريين ،  
 أن طاعونا جارفا جاء على أهل دار . فلم يشك أهل المحلة أنه لم يبق  
 فيها صغير أو كبير . وقد كان فيها صبي يرتفع ويميل ولا يقوم على  
 رجلية ، فعمد من بقي من المطعونين من أهل تلك المحلة إلى باب تلك  
 الدار ، فمسده .

فلما كان بعد ذلك بشهور ، تجول فيها بعض ورثة القوم ففتح  
 الباب ، فلما أفضى إلى عرصة الباب ، إذا هو بصبي يلعب مع جراء كلبة  
 وقد كانت لأهل الدار ، فراعته ذلك ، فلم يلبث أن أقبلت كلبة كانت  
 لأهل الدار ، فلما رآها الصبي حبسا إليها ، فامكنته من أطباثها  
 فمصها فظنوا أن الصبي لما بقي في الدار ، وصار منسيا ، واشتد  
 جوعه ، ورأى أجرامها تستعين من أطباثها ، حبسا إليها ، فعطفت  
 عليه ، فكما سقته مرة أدامت ذلك وأدام هو الطلب ، والذي ألهم هذا  
 المولود مص إبهامه سياعة يولد من بطن أمه ، ولم يصرف كيفية  
 الارتضاع ، هو الذي هداه إلى الارتضاع من أطباء الكلبة ، ولم تكن  
 الهداية شيئا مجعولا في طبيعته لما مص الإبهام ، وحلقة الثدي ، فلما  
 أفرط عليه الجوع ، واشتدت حالته وطلبت نفسه ، وتلك الطبيعة  
 فيه ، دعت تلك الطبيعة وتلك المعرفة إلى الطلب والدنو ، فسبحان من  
 دبر هذا ، والهمه وسواه . . . ودل عليه .

لماذا نشأ هذا العداء بينه وبين الانسان ومتى ؟ ولماذا تروى القصص الكثيرة عن الشؤم الذى يحمله اينما حل ؟

لا أنكر ان مشيئته شديدة الاثارة ، وهى أقرب الى التكبر ، ولا افكر انه يحب البحث لساعات طويلة فى المزابيل ، وقد يقضى عمره هناك . . . أما صوته فقد كان صوتا كريها فى البداية ، لكن ما لبث أن أصبح يشبه أصوات طيور كثيرة ، ليس أجمل منها بطبيعة الحال ، لكن ليس أكثرها قبحا . ان الاصوات والاشكال مخترعات الانسان وافكاره يضيفها على المخلوقات لسبب أو آخر .

ان هذه الامور معروفة . أما انه طيز ميسال الى السرقة ، ويسرق جميع الاشياء التى يقع عليها نظره ، التى يقدر على حملها ، سواء أكانت نافعة أم لا ، فأمر يحتمل النقاش الطويل ، لان بعض الناس يروون قصصا كثيرة عن ذلك : واناس آخرون يتسمون ابتساما أقرب الى الشفقة وهم يسمعون تلك القصص ، ويعزون المبالغة التى تميزها الى نوع من العداء بينه وبين بعض الناس ، خاصة أولئك الذين يملكون أشجار الجوز ان لهذا الطير غراما خاصا بالجوز ويفضله على أى طعام آخر ، واذا كان كل طير يحب لونا من الطعام ويفضله على غيره ، فان هذا من حقه ولا يمكن أن يوجه اليه اللوم بسبب ذلك ! لا يتخلى أبدا عن مسافة الامن الضرورية بينه وبين الناس ، وهذه المسافة لا تقاس بالامتار أو الخطوات وانما لها مقياسها الخاص ، وهى تختلف من انسان لآخر . المسافة بينه وبين الفلاح لا تزيد عن بضعة أمتار أغلب الاحيان ، أما تلك التى تفصله عن الصيادين فانها كبيرة الى درجة لا يدركها آلا من تجربتها ، وبالرغم من ان لحمه لا يؤكل ، فقد ترسب فى أعماق الصيادين شعوران مختلفان ، بعض الصيادين لا يكاد يراه حتى تظلم روحه ويمتلئ احساسا بالخيبة ، وقد يعزو اليه سبب الفشل الذى لاقاه فى يومه ذاك ، وبعضهم لا يكاد يعتبر المسافة بينهما كافية ، وبطريقة مليئة بالمر ، حتى يطلق عليه النار ، أما عدد الطلقات الخائبة التى أطلقت على الغربان فلا يحصيها أحد . . . لكثرتها ذات يوم قررت ان أقضى طوال بعد الظهر فى مراقبة زوج من الغربان كان لهما عش على شجرة جوز فى نهاية البستان المجاور للبيت

الذى أسكنه . مثل هذه العملية لا تروق لانسيمان آخر ، وربما لم تكن تروق لي لولا حالة الضجر التى ملأتني فى تلك الفترة ، بعد أن سمعت قصة عن رجل احترقت زوجته ، وكان يسكن فى حيننا ، والقصة خلفت أسى كبيرا فى نفوس الكثيرين وقتا طويلا ، ليس حزنا على المرأة المحترقة فقط بل لأنها تركت ستة أطفال ، كانت الكبيرة فتاة لا تتعدى العشر سنين . ورغم أن الحادثة كما رواها الناس كانت قضاء وقدر فان همسا انتشر فى وقت لاحق ، يؤكد أن المرأة أحرقت نفسها بعد أن يشيت من الحياة القاسية التى كانت تعيشها .

كلما أتذكر هذه القصة أحس بحزن جارف يملأ نفسى ، رغم اني لا أعرف هذه العائلة ، ورغم أن ما وقع لها لا يمثل قمة المأساة فى هذه المدينة الكبيرة التى تقع فيها كل يوم عشرات الحوادث . . حوادث الانتحار والقتل والاعتداء . . ولا أعرف أية مصائب أخرى .

لو انتهت القصة عند هذه الحدود لطواها النسيان بعد فترة من الزمن ، كما يطوى عشرات القصص الأخرى ، لكن قبل أن ينقضى الشهر الثانى على الحادثة تزوج الرجل ، واشترطت الزوجة الجديدة ، لكي تقبل به زوجا ، أن يتخلى عن الأولاد ، وكان أصغرهم لا يتجاوز الأربعة شهور . ودون تردد وافق وتزوج ، وانتشر خبر زواجه بسرعة أكبر مما انتشر خبر موت الزوجة ، أما أين ذهب الأولاد وكيف تصرف بهم فان الناس يختلفون فى رواية التفاصيل . قيل انه خلال اسبوع لم يفعل شيئا سوى ضربهم ، حتى الصغير ، وكان يريد بهذه الطريقة أن يهرب الأطفال ويذهب كل واحد الى أي مكان يختاره فى المدينة الكبيرة . وقيل انه ترك الأطفال يومين دون طعام بحيث أن الصغير مات بعد أن انتقل الى بيت أحد الجيران ، وكان أقرب الى الموت منه الى الحياة ، ولم تفده الرعاية المتأخرة التى قدمت اليه . وقيل أن أهل الزوجة جاءوا وأخذوا الأطفال بعد أن سمع عدد كبير من الجيران بكاءهم وأبلفسهم بذلك .

أما حين سئل الرجل عن الأولاد ، وتم ذلك بعد الزواج ، فقليل ان الحزن بدا واضحا على وجهه ، وكاد يبكي ، وأكد أن أهل الزوجة سرقوا الأطفال أثناء غيابه ، وأنه لم يقرر على الحياة يوما واحدا فى البيت الفارغ ، الامر الذى اضطره للزواج خوفا من الجنسون أو الانتحار .

هذه الحادثة ، أو ربما غيرها ، ولدت فى نفسى ذلك الشعور العميق بالحزن . . وفى ظهيرة ذلك اليوم من أيام آب تخلت عن عاداتي فلم



أنهم ، وجلست قرب الشباك الواطيء المظلل على البستان أقرب  
الاشياء بصمت أخرس ، واعترف اننى أكثر ما استهوانى وشغلنى عن  
كل ما حولى زوج الغربان : كانا لا يتوقعان لحظة واحدة ، كانا لديهما  
شيء يفعلانه . وإذا تخليت عن الكثير من التفاصيل ، الاقرب الى  
الحقيقة ، فقد رأيت شيئا عجيبا : رأيت الغرابين بعناد أقرب الى  
الجنون يعادكان حبات الجوز ، حتى اذا حصل أحدهما على حبة يأتى  
الآخر ويقشرها بكثير من الصبر والمثابرة ، فاذا انتهى أخسها وطار  
عاليا ، كان طيرانه مدوما وثقيلًا ، وتصورت فى البداية أنه ينقلها الى  
العش ، لكن عندما أخذت زاوية أخرى مقابل شجرة الجوز لارى كيف  
تنتهى اللعبة ، كنت ألمح الغراب يبتعد حتى يصل الى بداية السطح  
القريب ، ومن ارتفاع شاهق يلقي بحبة الجوز فاذا تحطمت من أول  
مرة حمل أجزائها ، جزءا وراء آخر ، وعاد بها الى العش ، أما اذا لم  
تتحطم فكان يلتقطها مرة أخرى ويفعل ما فعل فى المرة الأولى ، وقد  
يتكرر الامر عدة مرات حتى تتحطم حبة الجوز . فعلا ذلك مرات كثيرة ،  
وفى احدى اللحظات رأيت الغرابين يقطعان عددا من حبات الجوز  
ويدفنانها فى زاوية البستان ، قريبا من السور ، ولا أبالغ اذا قلت  
انهما اختارا أصعب الامكنة وأكثرها خفاء .

راقت لى اللعبة كثيرا وأزالت من نفسى بعض الاحزان ، وتعلمت ان  
كثيرا من الطيور تتمتع بذكاء كبير !

أما ما حصل بعد ذلك فكان أعجب . يبدو أن صاحب البستان  
ضاق بهذه الغربان وتخير وقت الغروب لكى ينتهى من تدمير عشهما ،  
لانه اذا استطاع تدمير العش فلا بد أن تهجر الغربان البستان وتبحث  
عن مكان آخر .

ربما فكر فى الامر وقتا طويلا ، لانه حين تخير ذلك الوقت ، وحين  
ربط نفسه بحبل ووضع فى وسطه عصا قصيرة وقوية ، فلا بد أن يكون  
قد فكر بالامر واستعد له .

كان العش فى مكان عال من شجرة الجوز ، وكان الوصول الى هناك  
من الصعوبة بحيث ان الغرابين ، وهما يحومان حول الشجرة ويقتربان  
ويبتعدان عن العش ، كانا من الثقة والفخامة الى درجة انهما نظرا الى  
هذه المحاولة نظرة مليئة بالسخرية . كانا متأكدين ان المكان من البعد  
والحصانة بحيث لا يمكن أن يصله الانسان . أما وذلك الفلاح يزحف  
بعناد ويحرك الحبل بتلك الطريقة الواثقة والمأكرة ، فقد كان يرتفع  
ببطء لكن بثقة . والغرابان اللذان كانا يقتربان ويبتعدان بتلك الطريقة

الفخمة ، وهجماتهما تقترب وتبتعد وتمتلئ بالسخرية والتحذير ،  
ما لبثا أن أحسا بالخطر وبذلك الإصرار الذى يملأ الرجل ، عند ذاك  
بدأت الدائرة التى يدوران فيها تضيق ، وبدأت صيحاتهما تتسمم  
بذلك المقدار الكبير من التحذير . والرجل بجسمه النحيل ، بصعوده  
الواثق ، يقترب أكثر فأكثر من العش .

كنت أرقب كل ذلك بصمت وانفعال . كنت فى بداية الامر محايدا  
تجاه هذه المعركة التى تجسرى أمامى . وكانت القصص الكثيرة التى  
سمعتها عن الغربان تثير فى نفسى الحذر ونوعا من عدم الاحترام . وقد  
استطيع أن أقول : الاحتقار ، لكن والرجل يرتفع ودورة الغربان  
تضيق ، وتلك الرائحة التى هبت مع الغروب ، بدأت أشعر أن شيئا  
خطيرا لابد أن يقع . كنت أخاف على الرجل أن يسقط ، كنت أخاف أن  
تلتوى شجرة الجوز النحيلة وتقصف تحت ثقله . كنت أخاف أن  
يهوى العش من الاهتزاز القوي وتتساقط الفراخ .

الظلمة تقترب بتعومة خفية ، الرجل يرتفع ، الغربان بصرخاتها  
وطيرانها الخشن تدوم بطريقة أقرب الى التحدى ، أما عندما بدأت  
صرخات الفراخ الصغيرة فى العش ترتفع فزعة مستغيثة ، فقد شعرت  
أن شيئا أقرب الى الخطر لابد أن يقع .

فى تلك اللحظات المليئة بالتوتر والخوف والمعزولة عن لحظات  
الزمن العادية بدأ شيء عجيب :

صرخات متوجعة قاسية تملأ الدنيا ، أحد الغرابين دار حول رأس  
الرجل دورة مليئة بالعنفوان والبسالة ، وخفق بجناحيه بصخب أقرب  
الى الدوى ، وارتفع حتى استقر فى العش . أما الغراب الآخر فقد بدأ  
يدور حول الشجرة بين العش ورأس الرجل ، وبدأ بحركته وكأنه  
حجر مربوط بخيط ويدور فى تلك المسافة التى تضيق كل مرة مع  
الامتداد البطيء والارتفاع .

كان الرجل مصرا . كان واثقا وحذرا . والفراخ التى أصابها الفزع  
بدأت صرخاتها تتباعد وتأخذ نفعا مختلفا ، أما الغراب الذى كان يدور  
فقد أصابه الجنون ، وكان جنونه يتصاعد ويحتد مع كل خطوة جديدة  
إن أية كلمات لا تستطيع أن تعبر عن اللحظات الأخيرة . فعندما  
اقترب الرجل ، ولم تبق الا خطوة واحدة وامتداده اليه ، جنت الدنيا  
وانقلب كل شيء . لم تعد الفراخ تعرف التوقف عن الصراخ الفزع ،  
ولم يعد الغراب الكبير فى العش قادرا على البقاء بذلك الوضع انساكن

أما انغراب الآخر فقد تخلص من الدوران ليبدأ معسركة جديدة : أخذ ينقض بشكل عمودي على الرجل ، ينقض عليه مباشرة ، كان يضربه بجناحيه ، يضربه بجسده كله ، وكان ينخر ويخرمش ، والرجل بين أن يواصل صعوده ، وبين أن يدافع عن نفسه . وفي لحظة أقرب إلى الظلمة انتهى كل شيء ، انقض الغراب ، وبطريقة ما ، لم تفهم أبدا حتى الآن ، انتزع عين الرجل ، والرجل بين الإصرار والتحدى انتزع عصاه القصيرة القوية وهوى بها . وفي لحظة واحدة كانت صرختان .. صرخة الرجل ، وصرخة الغراب الذي سقط من قوة الضربة .

في اليوم التالي نقلت الانثى الفراخ إلى مكان آخر . وفي اليوم نفسه كانت تبحث بمخالبها عن حبسات الجوز بين الأشجار ، في زاوية البساتين ، وتنقلها واحدة بعد أخرى .. إلى مكان آخر .

هجمت أيام دافئة في آذار ، وحملت معها روائح الارض وتفتح الطبيعة فازدعرت بعض الورود المبكرة وبدأت أوراق الأشجار الصغيرة المائلة الى الحمرة مفتونة بتدفقها المبكر وأضفت على الجو سكونة أقرب الى الخدر .

قال أحد الرجلين المسنين المتدثرين بعباءتين من الربو وهما يطلان من الشباك العريض على الحديقة الواسعة :  
- سيكون صيف هذه السنة حارا ، لان دفء آذار جاء قبل أوانه .  
قال الرجل الآخر بصوت خافت مليء بالحسرة :  
- دفء آذار خداع .

قال الاول :  
- العادة ان بعد آذار شتاء آخر ، لكن هذه المرة يبدو ان الصيف قد بدأ ولن ياتي الشتاء مرة أخرى .  
- ألم تسمع بالمثل الذي يقول : خبير حطباتك الكبار لعمتك آذار ؟

- ولكن ألا ترى الدفء الآن ؟  
- مرت أيام دافئة كثيرة في سنوات سابقة ، لكن بعدها جاء البرد والطوفان . . وسقط الثلج في نيسان .  
- يبدو أن دورة الطبيعة تغيرت كثيرا . أيام كنا صغارا كان البرد لا يتوقف طوال الشتاء ، وكنا نزيح الثلج عن أبواب البيوت في نيسان .  
- أيام قديمة ومضت . .

- صحيح . . ولكن من يدرى !  
واستمر الرجلان يتحدثان برتابة أقرب الى المجاملة ، لم يكونا متحمسين لشيء ، وحتى الدفء الذي يعبق بين فترة وأخرى كان يبدو عاديا رتيبا . أما حين دخل الخادم حاملا للقهوة فقد خلق تغييرا في الجو .

قال الضيف :  
- الله يعطيك العافية يا سالم . .  
توقف قليلا ، تغير صوته وأضاف :



- لقد قمت بالواجب كاملا • لولاك ، لكان الامر صعبا •  
قال الخادم كلمات غامضة أقرب الى الغمضة ، مع حركات بسيطة  
تحمل معنى التواضع والحزن في الوقت نفسه •  
الرجلان لا يزالان يرقبان الحياة من وراء الزجاج ، يرقبان الاشجار  
والزهور والهواء الخفيف الذي يداعب الاوراق الغضنة المتفجرة ،  
ويغيبان في ذكريات بعيدة ، يتذكran أشياء لا حصر لها •  
في الحديقة ، كان عصفوران يطيران بتناسم لذيذ • كانا يطيران  
بتلك الطريقة الشيطانية ، يطيران ويحطان بعث أقرب الى الحماسة •  
كانا يفعلان ذلك بطريقة لا يمكن أن تبقى سرا أو تخفى على أحد ،  
وما دام الرجلان لا يجدان الكثير ليقولاه فقد شعرا انهما مرتبطان  
بطريقة آلية الى هذين العصفورين • كانا يراقبان ، يتابعان ، يتبادلان  
النظر دون كلمات • وحتى الافكار والكلمات التي كانت في العناجر  
تراجعت • ان أشياء طريفة تجري أمامهما الآن والعصفوران في هذا  
العبت لا يتوقفان ، لا يهدآن ، كانا يريدان أن يندمجا بالطبيعة ،  
بالكون ، ان يصرخا بقوة ، وكانا يريدان أن يقولوا كم هو لذيذ الدفء ،  
وكم هي جميلة الحياة !

كان الخادم يراقب من بعيد ، بعد أن جلس في الشرفة الخارجية  
وبين فترة وأخرى يطل على الرجلين ، كان يريد أن يتابع شيئا يحسه  
ولا يعرفه ، لم تكن لديه أية أفكار ، أو كلمات • لكن كان يحس كل  
شيء حوله يتفجر ، يصرخ • • وكان يحس أن زلزالا يمكن أن يقع •  
الرجلان يرقبان ، العصفوران يطيران بهياج ، الخادم يفتح منخريه  
بشهوة ويتمنى لو يتعري ، لو يتحد بشيء ما • • بالطبيعة •  
صرخ صاحب الدار ليتغلب على جو الرقابة :

- سالم • • قهوة يا سالم •  
وحمل سالم نفسه من مكانه بقوة • صنع القهوة وعاد بها على مهل ،  
قال الضيف :

- لولاك • • ياسالم لخربت الدنيا •  
هز سالم رأسه بتواضع وخجل •  
قال الضيف يخاطب صديقه :  
- سالم كان الاول والاخير • • حتى الذين دفعنا لهم الفلوس ليقوموا  
بالواجب لم يفعلوا شيئا !

وبهدوء انسحب سالم الى الباحة الخارجية •  
كانت الطبيعة بتدفقها السخى تملأ الدنيا برائحة خاصة ، وكانت

الاشجار بانطلاقها الاقرب الى الجنون تتغير كل لحظة ، أما العصفوران فلم يتوقفا عن المداعبة لحظة . كانا يواصلان لعبة جميلة .  
فى لحظة ما ، بطريقة ما ، وبذلك السحبة المجنونة العابثة المليئة ، ولا يتذكر سالم بدقة كيف حصل الامر ، وكان العصفوران يطيران بشكل سريع ، وكأنهما فى سباق أهوج ، أو كأن زهانا بينهما ، فى تلك اللحظة المليئة بمعان لا يمكن التعبير عنها ، وبسرعة غامضة كأنها الومض ، تصور أحد العصفورين انه يستطيع اقتحام كل شيء ، وفجأة وبطريقة أقرب الى شيء ما ، وفى نطاق اكتشاف أماكن جديدة ، وبطيران يشبه النيازك ، فجأة .. اصطدم أحد العصفورين بذلك الزجاج اللامع الشفاف الصافى الذى كان يطل من وراءه الرجلان ، وسقط :

قال أحد الرجلين وهو يرقب العصفور حين اصطدم بالزجاج وسقط:  
- ومن الحب ما قتل !

ضحك الرجل الاول وردد وراءه :

- نعم .. ومن الحب ما قتل !

سقط العصفور على الارض . كان فى حالة من الفرح المتألم أقرب ما تكون الى الضحك .. أو المضاجعة . كان يتقلب فى كل لحظة وكأنه يفترس كل شيء ، أما العصفور الآخر ، الذى بدا له أن الامر لا يتعدى تلك الدعاية العابثة المجنونة ، فقد أصابه الذعر ، أحس ان شيئاً ما قد حصل .

كل شيء وقع فجأة وبسرعة أقرب الى الخيال . دار العصفور الآخر ، وقف ، انتظر ، اقترب ، مد منقاره ، حاول بمخالبه ، والعصفور الذى تلقى الضربة يدور بتلك الطسريقة التى تشبه ذبابة مذبوحة . كان يدور دورانا مرعوباً يائساً ، وبعد لحظات بدأت حركاته تخفت الى أن تلاشت . قال الرجل الاول :

- هل رأيت ماذا يصنع العشيق ؟

قال الرجل الثانى وهو يضحك بصخب :

- كما قلت : ومن الحب ما قتل !

كان سالم يسمع . ويهدوء نهض ليتأكد ان كان الطير لا يزال حياً أو مات .. كانت الجثة الصغيرة لا تزال دافئة حين استقرت على راحة يده ، لكن الحياة فارقتها .. هز العصفور جسمه ، مرة ثانية ، لكن الحياة كانت قد تخلت عن ذلك الجسد . وتذكر سالم الايام السابقة ، خاصة يوم الاحد من الاسبوع الفائت .

كان الضيف يسأل أولاده باهتمام :  
- هل صليتم عليها في المسجد الكبير ؟  
وحين يؤكد له الأولاد ذلك يسأل من جديد :  
- من سار في مقدمة الموكب ؟ كيف كانت تبدو الوجوه ، كيف  
كان صوت المرتل ؟ من هم المدفونون الى جانبيها ؟ وهل جاء أحده  
لا أعرفه ؟ وهل استغرقت العملية وقتا طويلا ؟  
كان الرجل يجلس في منتصف الصالون الكبير ليتقبل التعازي ،  
وكان بادي الحزن وبادي الحزم ، لكن كان شديد التيقظ أيضا ، كان  
يسأل عن كل الذين جاءوا ، وكان يسأل أكثر من ذلك عن الذين لم  
يأتوا .

وكان يردد بصوت صلب بين فترة وأخرى :  
« وإذا جاء أجليهم ... »

تذكر سالم ذلك كله ، وما كاد يحمل العصفور بين يديه ليلقيه  
خلف السور حتى سمع اصطداما قويا قالتفت : رأى عصفورا آخر .  
يسقط في المكان نفسه . تطلع بخوف . رأى المشهد نفسه . ومرت  
في ذهنه الصور نفسها . لكن لم يستطع أبدا أن يقدر ان كان العصفور  
الثاني هو العصفور نفسه الذي كان يطارد الاول أم أن عصفورين  
جديدين كانا يعيثان وحصل الذي حصل !

### جاء في كتاب الحيوان :

وفي الجردان جنس له عيث بالنقود والشمطوف والدواهم وختم خسة  
الجلي ، وذلك الهما تخرجها من جحرها في بعض الزمان فتلعب عليهما  
وحواليهما ، ثم تنقلهما واحدا واحدا ، حتى تعيدها عن آخرها الى  
موضعها ، فزعم الشرقي ابن القطامي ، ان رجلا من أهل الشام اطلع على  
جرد يخرج من جحر دينار فلما رآه قد أخرج مالا صالحا استخفه  
الحرص فهم أن يأخذها ، ثم ادركه الحزم وفتح له الرزق المقسوم بابا  
من الفطنة ، فقال : أنا أمسك أن أخذها ما دام يخرج ، فاذا رأته  
يدخل فعند أول دينار يغيبه ويعيده الى مكانه أثب عليه فاجترأ المال  
قال : ففعلت ، وعدت الى موضعي الذي كنت أراه منه ، فأقبل يخرج  
ما شاء الله تعالى ، ثم أخذ دينارا فأدخله ، فلما عاد ليأخذ دينارا آخر  
فلم يجد الدينار ، أقبل يشب في الهواء ، ثم يضرب بنفسه الارض  
حتى مات .

وهذا الحديث من أحاديث النساء وأشباه النساء .



« ركس » كلب صغير أبيض بلون الثلج ، شعره كالخراف الصغيرة بنعومته المتجمدة يتدلى على عينيه اللتين لا تظهران الا كشقين صغيرين متداخلين بمعالم الوجه . أما إبرز شيء فيه فذلك البوز الدقيق ثم المقطوع فجأة لينتهي بلون بين الحمرة والسواد ، وهذان اللونان قلما نجدهما مجتمعين بذلك الانسجام الاخاذ !

يقضى ركس معظم وقته في البيت ، ولا يسمح له بالخروج الا نادرا ، وبصحبة أحد ، وهذه الرياضة جزء من حياة القرية الصغيرة ، اذ لا يكاد يخرج بصحبة الميجر حتى يصبح موضع اهتمام الناس ونظراتهم ثم أحاديثهم . كيف يتصرف ، كيف يرفع رأسه عاليا ليلمعن بوجوه الناس الذين ينظرون اليه ، كيف يرفع سافه ليبول . أما أكثر ما كان يثير اهتمام واستغراب الناس فالطاعة التي يكنا للميجر ، اذ لا يكاد يصرخ عليه تلك الصرخة ، القصيرة الحادة ، حتى يصيبه الذعر ، فيتوقف عن أى شيء كان يفعله أما اذا طلب منه العودة أو أن يكف عن النباح ، فلم يكن يتردد أبدا .

هذه العلاقة ، وأسباب أخرى أيضا ، جعلت نظرة سكان القرية الى الميجر يمتزج فيها الخوف بالتقدير ، ويشوبها الغموض أيضا ، حتى أصحاب كلاب الصيد كانوا يستغربون هذه الطاعة ، ويتمنون في أعماقهم لو استطاعوا تدريب كلابهم بهذه الطريقة ، ويتذكرون عشرات الحماقات التي ترتكبها تلك الكلاب تفوت عليهم صيدا مؤكدا !

هناك عشرات من الاسئلة ترود اذهان الناس ، ولم يكن أحد يجسرؤ على طرحها الا في حالة واحدة حين يكون الكلب بصحبة حارس الميجر ، عند ذاك كان بعض الناس يعتمد اظهار اعجابه بالكلب ، ويعمل ذلك بصوت عال أو بحركات من التحجب أو بالسير مسافة طويلة قريبا من الكلب . وفي اللحظة المناسبة ، وكانت تحصل بشكل ما ، تطرح بعض الاسئلة : كيف استطاع الميجر تدريب الكلب بهذه الطريقة ؟ أين ينام ؟ ماذا يأكل ؟ وهل يفهم لغة أخرى غير لغة الميجر ؟ والحارس الذي كان يتبسط ، بعض الاحيان ، ويجيب عن الاسئلة التي يريد ، كان يضيف مزيدا من الغموض ، ويلقى ظللا اضافية أقرب الى الخيال

ليدلل من خلالها على الذكاء الخارج الذى يتمتع به هذا المخلوق ، وكيف ان احاديث طويلة ومستمرة تجرى بين الكلب والميجر ، وبينه وبين زوجة الميجر ، وانه نفسه اذا استطاع أن يفهم سبب بعض الحركات والمواقف الذكية للكلب فانه يستغرب أشياء أخرى كثيرة ! خاصة تلك الفترة الطويلة التى يتغيبها الكلب فى غرفة زوجة الميجر ، وكان يلاحظ ان قضايا شديدة الغموض تجرى أثناء ذلك !

ولما كان الميجر شخصية مرموقة شديدة الرهبة والغموض ، ويتمتع بقوى خارقة ، وهو الذى يتحكم بكل شئ ليس فى القرية وحدها ، واتما فى مناطق أخرى كثيرة نتيجة القوة العسكرية التى يقردها ، والتى تقوم فى أطراف القرية فى معسكر خاص بها ، فقد كان من عادته أن يستقبل زواره ، وهم من الشخصيات المرموقة فى القرية أو من الضيوف الذين يأتون اليها لأمور طارئة تتعلق بالامن وقضايا الحدود وأمور أخرى غيرها . كان من عادة الميجر أن يستقبل هؤلاء بوجود ركس ، وكان كثيرا ما قطع الاحاديث التى يخوضون فيها ، وانصرف الى الحديث مع ركس ، أو الى تأنيبه وتهديده بطريقة مرضية ، حتى روى عن الميجر أنه شهر مسدسه أكثر من مرة كوسيلة للتهديد ، وفى تلك المرات كان يستعمل اللهجة المحلية التى تعلمها . وكثيرا ما فهمت تلك الكلمات أو عبارات التهديد على أكثر من وجه !

فقراء القرية وأغنياؤها نظروا الى الميجر وكلبه نظرة خاصة ، فالفقراء الذين كانوا ينظرون خفية الى الميجر وكلبه وهم جلوس فى المقاهى الضيقة ، ويتذكرون القصص الكثيرة التى يسمعونها عن الاثنين ، كانوا يقولون : الجرو والذيب ، وينشغلون بما هم فيه لكى لا يضطروا لان يفعلوا مثلما يفعل الاغنياء : ان يقفوا باحترام ويلقوا التحية على الميجر ، وهو فى مشيته المتباهية سواء حين كان يلبس الثورت ويحمل بيده كرة صغيرة لتدريب الكلب ، أو حين يكون لابسا ملابس البيضاى الانيقة ، لم يكن يحفل بتلك التحيات والانحناءات ، وكثيرا ما تجاهلها متظاهرا بالتفكير أو بمخاطبة الكلب .

والفقراء والاغنياء كانوا يبدون خوفهم اذا حصلت بعض الامور فى القرية ، لان الغضب والتفتيش لم يكن يوفر أحدا وفى اللحظات الاخيرة ، فى نهاية الحملات أو أثناء التحقيق ، كان يروق للميجر أن يصطحب معه ركس ، ركس الذى كان يتجول فى جميع الانحاء بحرية مطلقة ، ويعبث بكل شئ ، ولا يتردد فى أن يلمس بلسانه وجوه

الناس دون أن يكونوا قادرين على منعه أو صدّه ، كان جميع هؤلاء  
يتمنون لو أن الميجر ينظر اليهم نظرتة الى ركس .

حديث القرية والميجر . وركس طويل . . طويل . ولعل أحدا لا  
يحب أن يذكر ذلك الحديث كله ، لكن جزءا منه أصبحت القرية كلها  
لا تتحدث الا عنه .

في أحد أيام الشتاء الباردة ، وكان الوقت عصرا والقرية تفرق في  
تلك الظلمة المبكرة . كانت أسراب الكلاب التي ولدت وعاشت في  
القرية منذ وقت طويل ، كانت تلك الكلاب ، وفي مثل هذا الوقت من  
السنة ، « تلاحق » بعضها ، وإذا كان لمثل هذه العملية قوانينها  
الخاصة ، والتي تحددها الغريزة لا يخطئها أي كلب ، فإن ركس بطريقة  
ما ، لا تزال مجهولة حتى الآن ، كان ضمن الكلاب ، كان وحيدا بلا  
الميجر أو حارسه الخاص ، ودون أية حماية أو ميزة من أي نوع .

وإذا كانت تلك الكلبة البائسة واقعة في دائرة الحصار التي تعرفها  
جميع الكلاب وتحافظ عليها باتقان مذهل ، فإن ما حصل في ذلك  
الغروب الشتائي جزء من القانون وتأكيد له . فالكلاب القسوية ،  
المجربة ، تتمتع بأولوية لا يمكن لغيرها أن يخترقها أو يتجاوزها .

لكن الذي حصل شيء آخر مختلف ، فحين ظهر ركس ولفت نظر  
جميع الناس ، وأخذ الأغنياء يتصرفون على طريقتهم ، فإن الكلاب لم  
تلتفت اليه ولم تحس بوجوده . وكان من الممكن أن تفسح له مجالا  
في حلقة الحصار . لكن الذي حصل شيء مختلف ، إذ ما كاد يعدو  
مجنونا بتلك الحمى مخترقا الحصار حتى خيم جو من الذهول . نظرت  
الكلاب الى بعضها ونظرت اليه ، وفي لمح البصر أو بطريقة غامضة ،  
قبل أن يصل ، انقض عليه كلب واقتلع الجزء الأكبر من ظهره .  
وخلال لحظة واحدة ارتدى وهو يعوى بتلك الطريقة المستغيثة  
البائسة ، وواصلت الكلاب لعبتها ضمن قوانينها الخاصة .

أما ما حصل بعد ذلك فانه جزء من تفاصيل الحياة اليومية .  
صحيح ان الميجر أمر يقتل جميع الكلاب ، وجند من أجل ذلك عددا من  
الجنود النظاميين . لكن ركس آخر تم احضاره خلال فترة قصيرة ،  
وكان هذه المرة من النوع الكبير . وقد اختلف الناس كثيرا كثيرا في  
الدور الذي يقوم به ركس الجديد . قال بعض الناس انه كلب  
للمحراسة ، وقال آخر انه لاقتفاء الاثر . وقال غيرهم انه كلب قوى

ويمكن أن يقتل ويسيطر على جميع الكلاب الأخرى ويتفلسفها • أما  
حارس الميجر فقد قال كلمات غامضة لم يستطع الناس تفسيرها أبدا ،  
قال : ان زوجة الميجر هي التي اختارته •• وانه كلبها وليس كلب  
الميجر •

أما كلاب القرية فقد استمرت في التوالد من جديد واستمرت تنبح  
قبل رحيل الميجر وبعد رحيله • وأما ركس الجديد فقد قتل بظروف  
غامضة ولم يعرف أحد من قتله أو لماذا قتل !



في ذلك اليوم الشتائي البارد ، ومثل عاداتي كن خميس ، قررت أن أوقد حمام الحطب . إنها نزوة لم أكف عن ممارستها منذ أيام بعيدة ، وهي تذكرني بأشياء كثيرة : بأيام الصغر ، وأيام بعيدة حين كنت شابا وأذهب مع مجموعة من الاصدقاء الى حمام السوق ، وتذكرني أيضا بروائح أحن اليها لاسباب غامضة !

هذه العادة التي داومت على ممارستها منذ وقت بعيد لا تأخذ أبعادها ولا تكتمل بالنسبة لي الا اذا قمت بكل شيء شخصيا : اكسر الحطب ، أجفنه ، أجمع الاجزاء الصغيرة واجعلها كومة على شكل هرم لكي تسري فيها النار بسرعة ، فاذا انتهت هذه المرحلة أنتقي عددا من الأغصان الجافة المتوسطة الحجم وأضعها متصالبة ومتباعدة بعض الشيء لكي تتخللها الريح وتساعد على سرعة اشتعالها . وفي المرحلة الاخيرة أضع قطع الحطب الكبيرة الثقيلة ، وحين تبدأ بالاشتعال أكون مطمئنا لكل شيء وأحس بدفء الماء قبل أن أغادر مكاني خلف الدار بتلك الزاوية الاثيرة في الصالة الداخلية ، والتي أطل منها على كل شيء ، وأغرق في التأمل والتذكر . . . حتى يعين وقت الاستحمام !

قمت بهذه العمليات الطقوسية بتلذذ ، وكان اثنان من اولادي يراقبان ، وانا في كل حركة أبدو دقيقا نشيطا ، وان تظاهرت باللامبالاة والآلية ، لكن فجأة ، وبعد أن اشتعلت النيران بزهو وبدا نورها الاصفر المزرق يتصاعد ، سمعت صوتا لم ارتح اليه ، قلت بصوت فيه غضب :

- هذه المخلوقات التسعة لا تبني اعشاشها الا في أسوأ الاماكن . وتراءت لي صورة الحمام وهي تبني اعشاشها في المداخل ، وكيف انها كلّفهنى الكثير قبل اسابيع وانا افتزع بقايا العش من المدخنة ، وكيف اسمح للدخان بالحركة الطبيعية دون عوائق من هذا النوع الاحمق . قلت لنفسى « لا يمكن أن يكون العش وبقيايا الخيسوط والاغصان الصغيرة عائقا ، لابد أن تحترق في هذا اللهب » .

تراجعت خطوة وتطلعت الى الاعلى لكي أتأكد من ان الدخان يصعد . رأيت سحابة قلّمة تتصاعد بقوة وانتظام . شعرت بالراحة ، وكنت

أن أنفض يدي كى أعود الى داخل البيت ، الى الزاوية ، لكنى سمعت صوتا أقوى من المرة السابقة . توقفت . فركت يدي وأنا أفكر . تطلعت الى الاعلى مرة أخرى ، كان الدخان يتصاعد باستقامة اول الامر ثم يلتوى عندما تضربه الريح . تصورت أن غصنا جافا سيسقط من فوق ، وفى لحظة أخرى تراءت لى مجموعة من بيوض الحمام ، لكن صوتا حادا مكتوما ارتفع فجأة . تراجعت الى الخلف خطوة وامسكت لا شعوريا بالولدين فى حالة الدفاع عن النفس . وانتظرت .

فى لحظة خاطفة مليئة بالصخب رأيت قطا مذعورا يندفع بقوة خارجا من النار . كانت لحظة مخيفة . ارتجفت ، واغمضت عيني . وحين فتحتهما مرة أخرى واستوعبت الحالة من جديد لم أصدق . لقد استغرق اعداد الحطب وايقاده وقتا ليس بالقصير ، وحين بدأت الاعواد الصغيرة بالاشتعال امتلأت رئتاي برائحة الدخان مما اضطرني الى التراجع ومسحت عيني بظاهر يدي لازالة الدموع الصغيرة التى تكونت . أما حين بدأت الاغصان الكبيرة تشتعل فقد استغرق ذلك وقتا طويلا . قلت لنفسي وأنا أستعيد هذه اللحظات بتساؤل وذهول : « لابد ان الخوف منع هذا القط من الخروج والهرب ، وبعد لحظات وأنا أفرك يدي لادفئتهما قلت بصوت عال :

— عجب أمر هذا القط ، لقد كان الدخان وحده كافيا لان يخنقه . فكيف احتمل النار ؟

تطلعت الى الوراء لارى أين أصبح ذلك القط ، حين رأيته يجلس على مسافة قريبة بدا لى منظره مرعبا : كان القسم الاكبر من جلده قد احترق ، وكان شارباه وقسم من وجهه قد تغير تماما وأصبح أقرب الى المنظر المضحك .

خلال لحظات ، وبعد أن استعاد القط أنفاسه ، وبعد أن مر بلصانه على بعض أجزاء من جسده المحروق ، رأيته ينتفض وينهض ، تصورت انه سيتوارى لكنى يعالج نفسه ويتحمل الآلام بعيدا عن أعين البشر ، لكن فجأة اندفع بقوة ، أقوى من المرة الاولى ، باتجاه النار ، يريد أن يقتحمها لكي يرجع الى حيث كان . لم يكن يابه بالنار أو الدخان ، ولم يابه لوقوفنا نحن الثلاثة .

بشكل لا واع ، حملت حطبة طويلة ووضعتها حاجزا لأمعه من التقدم ، لكن بطريقة غاضبة شرسة تجاوز الحطبة الممدودة وحاول الاندفاع نحو النار بقوة أكبر ، وحاولت بدورى ، وبقسوة أكثر من السابق ، أن أمنعه . واستمرت هذه اللعبة القاسية فترة غير قصيرة ،

وفي كل مرة أستطيع إبعاده ، وبقسوة ، تحديا وإصرارا على اقتحام النار . الى أن اقتحمها .

في وقت متأخر ، ونحن نشرب الشاي ، ونتابع أخبار التلفزيون مثل عادتنا كل يوم ، قال لي أحد الصغيرين الذي رأى كل شيء :  
- هل تفعل كل القطط هكذا يا أبي ؟

نظرت اليه طويلا وأنا أتأمل الحزن العميق الذي يرقد في عينيه وقلت :

- ليست القطط وحدها التي تفعل ذلك .. ان جميع الحيوانات تفعل ذلك أيضا .

وساد الصمت . مرت في رأسي أفكار عديدة ، وكنت أقول أشياء وأشياء ، لكن في لحظة وقد امتلأت بشعور المرارة والحقد وقلت بصوت هامس :

- على الانسان أن يتعلم ذلك جيدا .

نظر الى الصغير باستغراب وسأل :

- ماذا قلت يا أبي ؟

- لا شيء .. لا شيء .

وساد الصمت مرة أخرى ، ومدت يدي لاهرش رأسي لعل أستطيع إزالة الاوساخ والافكار البائسة ، والتصرف بطريقة تخلصني من حياة المنفى ا

يختلف الصيادون كثيرا حول الزاغ : هل يؤكل لحمه أو لا يؤكل ؟ قال بعضهم انه من فصائل الغربان ، وما دامت الغربان تأكل الفطائس وتعيش في المزابيل ، فانها لا تستحق أن ينظر اليها ، أما الطلقة فحرام بها . وقال غيرهم ، الزاغ طير مهاجر ، لا يأكل الا أطيب الحبوب ولا يشرب الا من أعذب الينابيع ، ولذلك فان لحمه طرى شهى ، ولا يمكن مقارنته بالغراب أبدا والطيور اذا تشابهت بأشكالها فانها تختلف بمرعاها ، والمرعى هو الذى يحدد ان كانت تؤكل أو لا تؤكل .

هذا الاختلاف الذى كثيرا ما يظهر بين الصيادين يجعلهم يطمون الموضوع سريعا ليتحدثوا عن طيور أخرى ! لكن فى قرارة نفوسهم تكمن الرغبة دائما لمعرفة هذا الطير .

الشبه بين الاثنين كبير ، فى الحجم ، فى الصوت ، فى طريقة الطيران . أما ما يختلفان فيه ، فتلك الظلمة القاسية التى تميز الزاغ انه مثل الليل الداكن الشديد القسوة ، وزيادة على ذلك فان الزاغ لا يكون الا فى أسراب كبيرة ، وأكثر ما يظهر فى رحلته اليومية خلال فصل الشتاء ، فى الصباح الباكر وقبل الغروب .

والصيادون الذين تعودوا تجنبه بسبب الشئوم أو قسوة لحمه ، كثيرا ما نظروا الى تلك الاسراب السوداء التى ترجع الصباحات الباكرة أو أمسيات الربيع الباردة ، نظرة مليئة بالحسرة والحقد ، وتكون هذه النظرة طاغية قوية حين تنعدم الطيور الأخرى أو حين تفيض الخيبة . وفى تلك الحالات فان حماقة فى قلب الانسان لابد أن تصبغ شيطانا ملعونا راكضا فى كل الاتجاهات .

يختار بعض الصيادين السنونو هدفا ، لكن السنونو الذى عبر الدنيا كلها ليرجع الى عشه ، لا يعطى نفسه بسهولة ، اذا ما يكاد يمرق فى الهواء خالقا ذلك الحفيف الغاضب حتى ينمطف انعطافا حادة ، وكأنه توقف فجأة أو تذكر أنثاه وعشه ، ولا بد أن يعود ، وفى تلك الانعطافة السريعة الحادة تخيب طلقات الصيادين ويصيبهم الحقد ، فتشتعل السماء بطلقاتهم المجنونة الهاربة ، ومن بين الدخان الأزرق ،



ورائحة البارود ، يجتاز السنونو الطلقات ليواصل رحلة السخريه  
ويصل أخيرا الى عشه !

حالة مثل هذه تولد جنونا أقرب الى سعار الكلاب ، حتى الصيادون  
الذين يتظاهرون بالوقار ، ويعرفون ما يؤكل من الطيور وما لا يؤكل ،  
تصيبهم الحمى ، فاذا أطبقت الظلمة وثقلت ، فإنهم يستبدلون الوطواط  
بالسنونو وبالرعوبة الماجنة نفسها تتصاعد الطلقات مرة أخرى ، ويظل  
الامر كذلك حتى تصبح بنات آوى وتبدأ الظلمة الكثيفة تغطي كل شيء ،  
لتولد في الانسان خوفا غريزيا من كل ما حوله .

في إحدى تلك المرات التي كانت الخيبة مثل ظل ثقيل تلازم ثلاثة  
من الصيادين ، بعد ساعات من تعب مضن وبعد طلقات بلهاء طارت  
في الهواء ثم تناثرت على الأرض ، في إحدى تلك المرات ، وقبل الغروب  
بقليل ، كانت أسراب الزانغ تعود من رحلتها اليومية ، كان منظرها  
من بعيد ، وهي تحوم على شكل نصف دائرة ، وتتقدم ببطء ، كان  
منظرها مثيرا محرضا ، والرجال الذين جلسوا في أماكن متباعدة  
يدخنون ويتأملون ويجترون خيبتهم ، كانوا ينظرون الى تلك الاسراب  
بحسرة وهي تدوم بعيدة أول الامر ثم وهي تسف وترتفع ، مع ذلك  
الدوى المكتوم الذي يملأ ساحة واسعة .

قال صياد لنفسه : غريبان .

قال صياد آخر : عالية ولا تدركها الطلقة .

قال الثالث : ليقطع رأسى ولاصلب اذا لم أستطع أن أمرغ واحدا  
أو أكثر في التراب .

كانت الاسراب السوداء تتقدم مليئة بالفخامة والثقة ، والرجال  
الثلاثة ، كل من مكانه ، يتابع هذه الرحلة المذهلة ، وكانت الأفكار  
تتضارب وتتراكض .

في لحظة ما .. أطلق أحد الصيادين .

اهتزت الاسراب وامتلا الفضاء بصوتها الحاد وغطي على صوت  
الطلقة .

في اللحظة الاخرى بدا أحد الطيور يترنح في الهواء ، وفي اللحظة  
الثانية فقد توازنه وبدأ يعلو ويهبط في محاولة مذبذبة بالاصرار على أن  
يواصل رحلته . ارتفع أكثر من طيور السرب . ارتفع عاليا ومن ذلك  
الارتفاع ، وبدوى هائل ، سقط على الأرض .

بدا الصياد الذي أطلق عليه النار فرحا وهو يركض لالتقاطه .  
كانت المسافة بعيدة ، تزيد على المئتي متر . في كل خطوة ، وفي كل

حركة كان فرحه يفيض ، ، كان يريد أن يكتشف هذا الطير . وفي كل لحظة ، ومع كل خطوة ، كان السرب ، الذي أجفل من المفاجأة أول الامر ، يتجمع ويتكاثف ، ثم بدأ بصراخ حاد يهبط الى الارض أو يحوم قريبا منها حول الطائر الذي سقط ، ومع اقتراب الصياد ، ومع خفوت حركة الطير ، كانت حالة من الجنون تملأ الدنيا .

في طريق العودة ، وبانعكاس أضواء السيارات الاخرى القادمة من الجهة الثانية ، كانت بقايا دم متحتر على الوجه وعلى اليسدين ، وعلى الاذن اليمنى . وكان الصمت يخيم . أما عندما دخل الصيادون الثلاثة الى المدينة ، وبدأت الاضواء الوهاجة تملأ السيارة كلها ، ففند قال الذي يجلس في المقدمة :

— الله يلعنه من طير .. لا يساوى ثمن الطلقة !

قال السائق . وهو يتوقف فجأة :

— خفت هذه المرة .. خفت أن لا يعود أحدا حيا .

قال الاول :

— قلت لكم : انه لا يؤكل . نعم لا يؤكل . انه غراب ، حتى لو

كان يؤكل فانه شئوم !

أما الثالث فكان صامتا ، وكان يحس آلاما حادة في وجهه وبديه

وأذله . وفي لحظة ما أحس أن معدته تؤلمه وود لو يتقيأ !

كانت عيشاء مليتتين بالقصوة ، حتى وهو يضحك . أما اذا نظر الى أحد نظرة تأنيب أو سخرية فكان الخوف يمتزج برغبة الهروب ، لان نظرة مثل هذه لابد أن تحمل الانتقام في أبسط الحالات أو أحسنها . وحين يكون مزاج البيك راثقا ، لابد أن تتبعهسا كلمات أقرب الى التثنية . كانوا يخافونه ويتحدثون كثيرا عن القوة الخارقة التي يتصف بها ، والقصوة التي تميزه عن جميع الاغنياء في المنطقة وفي المناطق الاخرى !

كان الصغار يهربون حين يمر بسيارته السوداء ، وكانوا يفعلون ذلك أيضا حين يكون راكبا حصانه متجولا في المزارع التي يملكها . أما الكبار فقد تعودوا أن يقدموا له كل فروض الطاعة بنوع من الاذعان يصل حدود الذل . كانوا يفعلون ذلك بالوقوف اذا مرت سيارته ، يفعلون ذلك أيضا اذا مر راكبا حصانه ، وبعض الاقرباء والمحظوظين كان يتجرا على سؤاله عن صحته وعن مزاجه . واذا لم يبدأ الحديث ، لم يكن أحد يستطيع أن يفعل ذلك . كانوا يقولون « مزاج البيك معكر » ، « البيك يفكر بقضايا كبيرة ولا يريد أن يفسد أحد عليه تفكيره » . وكانوا يقولون أشياء أخرى عن مشاغله الكثيرة في العاصمة ، عن الخصوم الذين سيسقطون نتيجة موقفهم منه ، عن المهمات الكبيرة التي تنتظره !

وجوده في الضيعة يغير كل شيء فيها : الوجوه والتصرفات ، وحتى الطقس . ولفرط ما رويت القصص عنه أصبح أقرب الى الاسطورة . كان يجرى الى الضيعة بين فترة وأخرى ، وكان يجرى معه عدد من الاصدقاء ، ووراء السور العالي للقصر الكبير لم يكن أحد يعرف ما يجرى ، لكن الجميع يدرك أن شيئا خطيرا يجرى .

يرى سكان الضيعة ان البيك يملك عددا كبيرا من أسلحة الصيد ومعداته . ويروي هؤلاء الهم لم يروه يستعمل بندقية واحدة مرتين . أما عن مطارته في الصيد فقد أصبحت من الشهرة والمثل بحيث كانوا يقولون : « البيك لا يضرب الا في اللحم » ، وهذا يدل على أنه لا يخطيء أبدا !

كانت أيام الصيد تختلف باختلاف المواسم ، وكان الاصداقاء الذين يصطحبهم البيك في رحلاته يختلفون باختلاف هذه المواسم . ولا يتذكر أحد من القرية ان صيادا من الذين جاءوا رجع بصيد أكثر من البيك . أما كيف كان يتصرف بهذا الصيد ، فما عدا احتفاظه ببعض الرموز التي كان يحاول أن يؤكد من خلالها مهارته وقوته ، لم يكن ينظر الى الطرائد وانما يتركها للآخرين ، خاصة هؤلاء الذين جاءوا من العاصمة . . كان يحرس على أن يحتفظ بالاشياء الغريبة : رموس الوعول الكبيرة ، جلود الحيوانات القوية والنادرة . . وبعض الاحيان تلك الطيور التي لم يصد منها أحد غيره !

الخدم الذين يقيمون في القصر يؤكدون أن رموس الوعول من الكثرة بحيث لا يستطيع أحد عدّها ، وهؤلاء الخدم يتكلمون كثيرا في الحديث عما يحويه القصر ، كانوا يقولون بعض الكلمات التي تضيف غموضا الى الغموض الذي يشمل كل شيء وراء الاسوار : حياة البيك ، عدد بنادق الصيد ، عدد رموس الوعول أو جلود الحيوانات . . وبعض الاشياء الاخرى !

كانت أيام الصيد تغير حياة القرية ، يترقب الناس عودة الموكب ويحرصون على معرفة ما جاء به والى أي مكان ذهب ومتى عاد ، حتى ان بعض الناس بلغ بهم حب الاستطلاع ان قاموا في ساعات الفجر الاولى وراقبوا من شباك البيوت أو من على ظهور الاسطحة الموكب ؛ كيف تحرك ، متى . . وكم عدد السيارات ، وكيف أن سيارة البيك كانت في المقدمة تشق الطريق . . الخ .

ذات يوم جاءت الى الضيعة سيارة غريبة ، سيارة خضراء مثل تلك التي تستعمل عادة في نقل الخضر والفواكه ، لكنها جديدة ، وقد ركب في وسط المساحة المخصصة للمحولة كرسي فخيم . كان الكرسي من تلك التي يستعملها الحلاقون ، يدور دورات كاملة ، ويبرق في ضوء الشمس ، وقد ثبت بشكل جيد . .

وصلت السيارة وأثارت اهتماما واسعا ، ولم يستطع أحد أن يتلمز كيف ستستعمل هذه السيارة أو لماذا . وحتى الخدم الذين أبدوا بعض المعرفة ، وكانهم على علم سابق بالامر ، لم يلبثوا أن أعلنوا عجزهم عن فهم هذه المشكلة الجديدة ، وقالوا لابد ان البيك يحضر مفاجأة كبيرة للضيعة وسيكون لها دوى كبير !

بعد يومين وصل البيك ووصلت معه مجموعة من الاصداقاء .  
واذا كان الصغار لا يشتركون في رحلات الصيد ، ولكن يتحدثون



عنها طويلا ، ويخترعون قصصا كثيرة لا يملون من روايتها مرة بعد أخرى ، فقد حدث شيء عجيب في هذه الرحلة .

طلب البيك أن يصطحب معه في السيارة الخضراء اثنتين من الصغار للمساعدة ، ولا أعرف كيف وقع على الاختيار .

إنها المرة الأولى التي أخرج فيها للصيد . صحيح أنني رافقت في بعض الرحلات خالي إلى مسافات قريبة وتمتعت كثيرا بهذه الرحلات ، وحاولت أن أقنعه ذات مرة بأن يسمح لي بطلقة واحدة ، لكن حين أكد لي أن كمية البارود والكبسولات التي معه لا تكفي لأكثر من ثلاث ضربات تنازلت وتوقعت أن أكبر بسرعة لكي أفل مثلما يفعل الكبار . قبل أن تبدأ الرحلة نصبوا رشاشا على السيارة الخضراء ، كان البيك موجودا أثناء نصبه ، وقد أشرف بنفسه على كل شيء . كان شديد الفخر والتباهي ، مع أنه لم يتكلم إلا كلمات قليلة . أما الحركة حوله ، فرغم النشاط الذي يميزها ، فقد كانت حركة أقرب إلى الرصانة وملئمة بذلك التوقع الخائف .

في منتصف الليل تهيأت مجموعة من السيارات والبنادق ، وكانت وجهة الموكب الصحراء الغربية . ولأن الرحلة بعيدة ومتعبة ، فقد ركب البيك في سيارة نجيب ، وركب الآخرون سيارات مشابهاة ، وكانت سيارة شحن كبيرة في مؤخرة الموكب ، أما السيارة الخضراء الجديدة المزهوة فقد كانت الثانية بعد سيارة البيك مباشرة .

بعد مسيرة يوم كامل وصل الموكب إلى مضارب أحد شيوخ القبائل ، وكان حدثا كبيرا هز الصحراء بما تخلله من أهازيج وأفراح وولائم . وفي السيارة الخضراء ذات الحافة العالية بالشبك الذي يحيط بها نظر البيك بتلك الطريقة التي لم يغيرها ، كانت نظرتة أقرب إلى القسوة أو الاختبار ، وعندما أكلنا بعض الأشياء التي أعطيت لنا قال لنا مرافق البيك ان علينا أن نحضر أمشاط الرصاص للبيك ، ويجب أن نكون شديدي الانتباه والدقة ، ويجب أن نكون سريعين ، لأن طبيعة الصيد بحاجة إلى مساعدين جيدين وصغار لا يأكلون إلا مكانا صغيرا لا يعيق حركة الكرسي الدوار جعلته يختارنا . أما الكلمة الأخيرة فقد كانت :

— يجب أن لا تخافوا من الرصاص الذي يتطاير حولكم . . ولا تخافوا من الصوت أيضا .

كان البيك على الكرسي . فوقفنا كتلة من اللحم المكتنز . كان ثقيلًا مليئا ، والكرسي يدور بتلك الطريقة المليئة بالفخامة وصوته

يثر مع كل حركة .

كل كلمات الارض لا تصف ما حصل : كان أزيز الرصاص وهو يتطاير يخلق مہرجانا مدويا مرعبا في الصحراء النفسية . . كانت قطعان الغزلان وهي تتراكم بذعر مجنون في كل الاتجاهات تخلق حالة من الرعب . أما البيك الذي كان يصرخ مع كل صلية رشاش فكان أقرب الى الثمل والجنون . كانت صرخات فرحة مدوية ، وبين لحظة وأخرى ، بين صلية رشاش وأخرى ، نرفع رءوسنا لكي نتابع هذا المشهد الذي لا ينسى !

كانت مهمة البيك أن يطلق الرصاص ، أن يطلق بغزارة . وكانت الغزلان وهي تتراكم حولنا مفزوعة وقفزاتها ترتفع الى مسافات تتجاوز السيارة بعض الأحيان ، ثم وهي تتساقط ، أو وهي تركض بلك الطريقة المضحكة . وقد كسرت أرجلها وتناثرت أحشاؤها . . وكانت الغزلان مثل انفجارات مرعبة في هذا الفضاء الفسيح .

حين عدنا الى الضيعة قال أبي : « أنت صغير ولا تحتمل مثل هذا » وقالت أمي « ان عينا أصابتني ولا بد أن تفعل شيئا من أجل طرد هذه العين الشريرة » . أما ما حصل لي بعد ذلك فلا أتذكره ، لكن أمي تروي أنني مت وعدت الى الحياة ، ولا أحد يعرف كيف حصل ذلك لأن الحمى التي أصابتني يمكن أن تقضى على رجل بالغ . منذ ذلك اليوم لم أر البيك ، لان أبي أرسلني الى المدينة بعد اعتلال صحتي ، وقال :

— القرية لا تناسب جسدك النحيل . . ثم عليك أن تواصل دراستك عند عمك في العاصمة .

لم أعد الى القرية ، وكانت تنتابني أحزان لا حد لها اذا سمعت كلمة واحدة عن الصيد ، أما اذا رأيت غزالا ، حتى لو كان في صورة ، فكانت حالة من المرض ثم الحمى تمزقني .

ذات يوم ، بعد سنوات طويلة ، علفت جثة البيك في الميدان الكبير ولا عرف هل حصل ذلك بسبب الغزلان . . أم البشر الذين قتلهم !

عصر اليوم التالى عثرت على سكنين متواضع ، وفى ناحية بعيدة ، تكاد تكون ضاحية ، ودون منافشات طويلة ، وافقت على الشروط التى ارادتها المعجوز الجديدة . وكانت شروطها بسيطة وواضحة : للغرفة نوعان من الاجرة ، الاول : أن يكون الساكن الجديد ثريا ويدفع كامل المبلغ الذى أريد ، والثانى : أن يكون الساكن فقيرا ومحتاجا ، وعندها يمكن أن تخفض الاجرة الى النصف ، شرط أن يكون ذلك الساكن مستعدا للقيام بمشوارين يوميا للكلب . ولكن تخفف من تأثير الصدمة على قالت بلهجة حزينة :  
- كما ترى . . أنا امرأة مسنة ولا أقوى على السير فترة طويلة أو بالسرعة التى يريدان « كروف » .  
بعد تردد . وافقت .

انها تجربة مثيرة ومقلقة للغاية ، اذ كيف يمكن اقامة علاقة مع كلب متقدم فى السن ، يضاف الى ذلك خاصة انها المرة الاولى بالنسبة لى ، انا الذى لم تكن له علاقة سابقة بالكلاب واكن لها فى أعماقى احتقارا كبيرا ؟

استغرق تدريب الكلب وقتا طويلا ، وتم على عدة مراحل . واذا كان الجنون لا يصيب البشر وحدهم والما يمتد الى الحيوانات أيضا ، فان كروف ، وهو اسم الكلب ، كان يصاب بالجنون أيضا . فى حالات كثيرة تركبه حالة من العناد والحسونة لا تفيد معه كل أساليب الاغراء والتهديد ، واذا لم يعالج على الفور يمكن أن يرتكب حماقات كثيرة !

فى احدى نزهاتنا المشتركة ، وفى مرحلة التدريب الاولى ، بعد أن أصيب كروف بحالة من الهيجان الشديد ، وبعد أن أعيانا تماما ونحن نحاول تهدئته واسترضاءه صرخت المعجوز :

- ميرو !  
وبشكل مفاجئ أقرب الى الغموض تغير الكلب تماما ، اذ بدأ يتلفت ويتشمم الهواء وينظر فى كل الاتجاهات وقد زائله الغضب وأصبح كلبا آخر .

قالت لى العجوز والكلب يسير بجانبنا ، دون سلسلة أو قيد :  
- اذا أصيب بمثل هذه الحالة ، فما عليك الا أن تنادى باسم ميرو .  
ومسدت على ظهره وهو يتلفت ويتشمم الهواء .. وأضافت :  
- أرجو الا تتبع هذه الطريقة الا فى حالة الضرورة القصوى ، لانها  
تتعبه !

رئت هذه الكلمة السحرية فى أذنى وحررت كيف أفسرها ، فى  
كل المرات التى حاولت أن استفسر عنها كانت العجوز بطريقة حزينة  
ومليئة بالغموض تهرب ، تغير الموضوع ، الى أن جاء ذلك اليوم ، دون  
سابق الذار . قالت :

- ميرو زوجى . زوجى الذى مات قبل سبع سنوات وكان يعطف  
على كروف ويحبه كثيرا . ومن غرائب الصدف أنه حين مات كان وحيدا  
مع كروف ، اذ جاءتة أزمة قلبية ، وأنا خسارج البيت . ولما عدت  
وجدت كل شيء منتهيا ، ولم يكن كروف مستعدا لان يصدق ان ميرو  
قد انتهى ، ولقد فعل أشياء كثيرة لا يصدقها الانسان حين جاء  
القس ، وحين جاء المشيعون . أما حين أرادوا أخذ ميرو للدفن ، فقد  
سبب لنا متاعب كثيرة .

قالت هذه الكلمات وصوتها ينخفض ويتهدج بعد كل كلمة ، ورأيت  
بعض الدموع تتساقط على خديها المتجمدين .. ولما هدأت قليلا ،  
أضافت :

- لا يزال كروف ينتظر عودة ميرو . نعم انه ينتظر ، ولا يستطيع  
أن ينام الا على رائحة ميرو : قطعة من ملابسه ، أداة من أدواته ، شيء  
من أشياءه ، وحين يجن ويصاب بحالة من الكآبة ليس له الا دواء  
واحد : أن أنادى على ميرو ..

منذ ذلك اليوم تغير كثير من الاشياء بالنسبة لى وربما ساعد فى  
هذا أن بعض الامور قد حدثت هذه الفترة بالذات . فليندا مثلما كانت  
غامضة فى حبها ، ظلت غامضة فى طريقة هجرها ، وحتى الآن لم  
أعرف سببا لهذا الموقف الحاسم الشديد القسوة حين أبلغتنى بعد أول  
مرة ننام فيها معا أنها لن ترانى بعد ذلك اليوم أبدا . أما المرأة العجوز  
وابنتها فقد تقابلنا ذات يوم مصادفة فى المخزن الكبير ، وبهدف تقديم  
للقى عليهما التحية ولا تحدث معهما ، لكنهما سارتا بكبرياء ونظرتا الى  
باحترار وكأننى حشرة مفزعة أتت من عالم آخر .



حين عدت الى غرفتي ذلك اليوم وجدت كروف ينتظرني . كان  
يخرمش الباب وأنا أضع المفتاح بالقفل أما حين دخلت فقد هجم على  
بقوة وحنان . وسمعت العجوز وهي تقف في الزاوية تنظر باستغراب  
وتقول بصوت بطيء :

— هكذا كان يفعل حين كان ينتظر ميرو .

ولما سمع كروف اسم ميرو أصابته حالة من الفرح فتركني وذهب  
نحو الباب .. ووقف هناك ينتظر ا

كانت القصص وهي تتوالى تثير الدهشة وتبعث على التساؤل ، لأنها لم ترو كما تروى قصص مثلها في مكان آخر ، وفي وقت آخر ، خاصة وأن البجثة التي كانت مثل طوفان يملأ الغرفة ، خلفت خوفا سيطر على الجميع ، وإن كان بأشكال مختلفة . وهذا الخوف أصبح متحديا إلى درجة لم يمكن أحدا ، في البداية ، من الخروج أو الحركة ، لكن إحدى القصص التي رويت هزت المختار ، وبطريقة لا شعورية أقرب إلى ما يفعله السائرون في نومهم أو المجانين ، نهض بشكل مفاجئ ، وبعبسية ظاهرة رفع الغطاء عن وجه عساف ، وسأل بتحد :

- أنت الذي عرفت الحيوانات والطيور ، وأنت الذي عشت للطيبة ، لكن لم تعيش فيها إلا لتنام ساعات ثم تتركها إلى البرية .. هل يمكن أن يكون الإنسان بهذه الوحشية ، ويكون الطير أو الحيوان أحسن منه ؟ قال المختار هذه الكلمات بوضوح ، وإن خالطه الحزن ، وانتظر ، وقد أدار رأسه قليلا ، كأنه يقرب أذنه من فم عساف ، ليسمع الجواب .

وحين خيم صمت طويل ، التفت المختار ووضع يده على كتفه وهذه هزا حنونا رقيقا كأنه يوقظه من النوم :

- عساف .. عساف .. هل سمعت ما أقول لك ؟

وتوالت كلمات الرجال قاسية مؤذية :

- لا تكن مجنونا أيها الرجل . غطه .. وتعال إلى هنا .

- أنت المختار .. ويجب أن تكون أعقل الجميع !

- لقد مات عساف يا رجل . لا تكابر ، ولا تطلب شيئا مستحيلا !

وبالعصبية نفسها التي بدا بها المختار ، تابع وكأنه لم يسمع كلمة

من الكلمات التي قيلت :

- عساف .. عساف لماذا لا تجيب ؟

كان جو الغرفة جوا ثقيلا تربض فيه رائحة الموت ، وإذا كان الناس قادرين على التصرف في أوقات كثيرة بتعقل وحكمة ، فإنهم في لحظات مثل هذه يفقدون هذه القدرة ، ويتحولون إلى قطيع يمكن أن يقودهم مجنون . حتى الكلمات القاسية ، حتى القبضات القوية وهي تمسك

المختار من تحت أبطيه لترفعه وتعيده الى حيث كان ، لا تمنعه من أن يواصل هذه اللعبة المدمرة .

أوقفوه ، بقوة . وقف لحظة . ثم سقط ، حملوه الى مكانه ، لكن ما كاد يستقر لحظة حتى نهض بقوة أكبر وهجم من جديد على عساف ، وحين صرخ به أحد المسنين :

— اذا ظللت بهذا الشكل فسوف نتركك ونمشي . وأنت تعرف معنى أن يبقى الانسان وحيدا مع ميت ، لابد أن يجن أو أن يموت مثله ! ومثلما تهبط النيازك من السماء ، فجأة التفت المختار ، بعد أن أبعد الأيدي المحيطة ، وزم أصابعه وهز يده دلالة أن ينتظروا ، ولما خيم الصمت من جديد ، قال بطريقة هادئة موزونة :

— يجب أن يسمع عساف كل كلمة تقولونها ، لانه بهذه الطريقة وحدها يتأكد اذا كان أهل الطيبة قد أصبحوا بشرا ويستحقون الحياة . . أم أنهم لا يزالون حمقى كما كانوا من قبل !

وقبل أن يسألوه ، ولكي تستقر الكلمات في عقولهم قال بحدة :

— يجب أن نضع وراء ظهره مساندا ، ونجعله ينظر إلينا ، لكي يعرف من يقول الحقيقة ومن يكذب .

قال أحد المسنين وقد مل هذا الالاحاح من الجنسون المفاجيء الذى ركب المختار :

— للموتى جرماتهم يا رجل ، ويجب أن نرعى هؤلاء الحرمة حتى النهاية . أما أن نمثل بهم ، أن نمازحهم ، أن نلعب معهم كالاطفال ، فإن هذا يسئ للموتى ويخالف الدين .

وبطريقة تداخل فيها المكر والذكاء والقسوة . وانفسوا على حل وسط : أن يعود المختار الى حيث كان ، وبالمقابل أن يرفعوا الغطاء عن وجه عساف . وقال أحد الضيوف ، وقد شعر أن معدته تكاد تخرج من حلقه ، وامتلأ صوته بحشوجة :

— سامحونا يا جماعة . . لقد كنا نحن السبب فى كل ما جرى ، ولولا هذه الرحلة المشثومة لما حصل الذى حصل .

قال أحد المبشرين ينهى الخلاف ويخلق جوا جديدا :

— الاعمار ، يا ولدى بيده الله . . فاذا جاء أجلهم لا يستقدمون ساعة ولا يستأخرون !

قال رجل آخر :

— عساف كان يريد أن يموت بهذه الطريقة ، كان يردد أمام الجميع :

— أريد أن أموت في البرية ، في الصيد ، كلبى معى وبندقيتى على  
كتفى أو ييدى !

ورغم أن بعض المسنين واذكياء الطيبة ساقوا الحديث بعيدا ، إلا  
أنه كان يعود ، دون رغبة أو شعور من أحد ، إلى الصيد ، وإلى الطيور  
والحيوانات ، وفى كل مرة يذكر شيء عن الكلاب أو الغزلان كان المختار  
يلتفت إلى عساف ، ويقول بصوت جارج :

— أنت الذى كنت تقول ذلك ، اسمع ، انهم الآن ، بعد أن تركت  
الدنيا ، يقولون الكلام نفسه ..

ويتوقف قليلا ، يمتلئ وجهه بابتسامة ساخرة ويتابع :

— كانوا يقولون عساف مجنون • عساف صايع ، عساف لا يحب  
العمل • والآن يرددون الكلمات نفسها التى كنت تقولها !

فاذا سمع أحدا ينهره أو يطلب منه الصمت يهز رأسه دلالة الموافقة  
والاستسلام ويقول :

— الآن يمكن أن تقولوا كل شيء .. تفضلوا !

إنها ليلة عجيبة من ليالى الطيبة • وإذا كان أهل الطيبة قد تعودوا  
على التسامح فإن فيهم قسوة تطغى فجأة فى دمائهم وتجعلهم أميل إلى  
الغضب • ولو أن أحدا فعل تلك الليلة ما فعله المختار لما انتهت الأمور  
بسلام ، لكن الفاجعة التى حلت بالمختار • بفقد الابن الوحيد الذى  
بقي له ، فى الحرب الأخيرة ، ثم بذلك البحث المضنى بين الطيبة  
والمدينة ليتأكد من حياته أو موته ، والضباط فى المدينة لا يقولون له  
كلمة تريعه ، وانمسا الجواب الذى ظلوا يرددونه دون تعب ودون  
تغيير : « مفقود » ثم وفاة زوجته المفاجيء أثناء إحدى رحلات بحثه ،  
والتي كانت تستمر أياما ، وعودته إلى الطيبة ليجد البيت خاليا  
وليقول له الناس بطريقة غامضة أول الامر ، ثم جارحة : « لقد أخذ الله  
وديعة » — أن هذه الفاجعة التى نزلت بالمختار جعلته فى كثير من  
الأحيان بين الصحو والجنون • وجعلت تصرفاته تتسم بذلك المقدر  
الكبير من الغرابة • لذلك لم يفاجأ أهل الطيبة من تصرفاته تلك الليلة  
لم يقدروا أن تصل إلى هذا الحد من القسوة والتحدى ، لأن الكلمة  
التي ظل يرددونها دون انقطاع ، طوال الفترة السابقة كلها : « لا أصدق  
لا يمكن أن يحدث كل هذا دفعة واحدة » •

والطيبة التى تعرف كيف تقسو وكيف تتحمل القسوة ، تعرف  
أيضا كيف تسرف فى الحنان ولا تتخلى عن أبنائها ، وإذا وجد من همس  
بأن المختار ، بوضعه الصمى الجديد ، لم يعد قادرا على أن يقسم



بواجبه ، وعلى الجهة الشرقية فى الضيعة ، أن تبحث عن مختار آخر ،  
فإن هذا الهمس قوبل بالازدراء والرفض ولم يؤد أية نتيجة ، لأن  
الكلمة الوحيدة التى كانت تتردد دون انقطاع : الطيبة لها وجه واحد  
وليس لها وجهان ، كما أنها لن تتخلى عن أبنائها حين يسقطون ، أو  
حين يضيعون . وإذا كان الناس فى الضيع والقرى الأخرى يفعلون ذلك  
فإن الطيبة لم تتعلمه ولا تريد أن تتعلمه !

تلك القصص إذا كانت قد أثرت فى المختار بشكل ظاهر ، فإنها لم  
تترك أحدا إلا وحركت فى أعماقه موجة عاتية من التساؤلات والحزن ،  
وجعلت الأمور تبدو ، فى لحظات كثيرة ، أقرب إلى الوهم الممزق :  
ماذا تعنى الحياة وماذا يعنى الموت ؟ ولماذا تنتهى حياة المخلوقات بهذه  
الطريقة العاتية ؟ وماذا لو أصبح الإنسان أكثر صدقا وبساطة وتخلي  
عن كثير من الأشياء التى تحولته إلى مخلوق لا يعرف سوى جمع  
الأشياء ثم تدميرها ؟ لماذا تصبغت المدينة أيام المحل الذى يتأكل  
الأحشاء وتذكر أيام لا يفيد التذكر ؟

أسئلة مثل هذه وعشرات غيرها مرت فى أذهان البشر المحصورين  
فى تلك الغرفة . صحيح أنها غرفة واسعة ، تدل على أن المختار كان  
يملك شيئا ذات يوم ، لكن الأعمال الذى بدأ فى الكثير من المظاهر ،  
ثم الغبار الذى تعشق الغرفة جيدا ، حتى أصبح جزءا منها ، والفوضى  
الظاهرة فى كل شيء ، مع قليل من القذارة الجديدة - أن هذه الأمور  
كلها تجعل النفس ضيقا ، وتبعث شعورا قويا بالانتهاء ، فإذا أضيف  
إليها وجود عساف ، بوجهه الجلمد المتقلص ، وعينييه المظنماتين ،  
وابتسامته الرخوة الساخرة ، فحينئذ لا يمكن لأحد أن يشعر بالامن ،  
حتى اشجع الرجال وأكثرهم صلابة ، ولذلك حين اقترح أحد المسنين  
فتح النافذة القبلية ، صرخ المختار بحدة :  
- أتركوا كل شيء كما هو .

هل هى الذكرى أو الرغبة بالتحدى ؟ هل هو الاصرار على السير  
فى الطريق إلى نهايته حتى لو كان الموت ؟

يمكن أن تفسر الأمور على كل الوجوه ، ويمكن أن يكون لكل وجه  
حقيقته الخاصة به ، ويكون صحيحا . فما دامت ارادة البشر  
الموجودين فى تلك الغرفة قد سقطت فى دوامة الحزن ، ولم يعد أحد  
قادرا على أن يتحدى المختار أو يرفض له طلبا ، فإن أقصى ما يستطيع  
فى مثل تلك الحالات ، الاحتياال عليه ومعاملته كطفل .

ومع القصص والذكريات تنفجر الآن الأحزان والمشاعر . وظلت

كلمات المختار وتعليقاته ، والتي بدت في لحظات كثيرة ، أقرب إلى الملامة ، تغطي على كل شيء وتعطيه الطابع الذى يريد ، فحين يكون الغزال الضحية يصرخ بذعر :

- هذا ما قاله عساف . وعساف لم يصد غزالا الا مرة واحدة في حياته . . . وبعد أن يتوقف قليلا يضيف : ألم تسمعوا عساف كيف كان يتحدث عن الغزلان ؟ كان دائما يردد قولا لا أنساه أبدا : الغزلان تبكى . . . تبكى دائما وهى تموت . . . ايا كانت الطريقة التى تموت بها ولذلك لم يذهب عساف الى صيد الغزلان مثلما كان يفعل الشباب الاغرار وبعض القساة الذين لا قلوب لهم .

واذا جاء ذكر الكلاب أو أية حيوانات أخرى ، كان المختار يهز رأسه هزات طويلة مستمرة مثل بندول الساعة ، فاذا وجد ما يقوله لا يتردد لحظة واحدة .

هكذا كانت أطول ليلة فى تاريخ الطيبة . واذا كان الشباب ، بدوافع غامضة متداخلة ، بدوا أقل اعتراضا وضيقا بتصرفات المختار فان المسنين ما كادوا يدارون الامر بشكل أو آخر حتى انبثق الفجر ، وعندما قال العم زكو الذى بنى معظم بيوت الطيبة :

- اتعرفون . . ؟

قالها بصوت شديد النبرات ، ليبدأ رحلة جديدة ، وحين تطلعت اليه العيون ، تابع باللهجة نفسها :

- أكرام الميت بدفنه ، ويجب أن يدفن عساف مع أول النهار . وبحركة فيها الكثير من المهارة أشار العم زكو الى مجموعة من الشباب أن ينهضوا وينهضوا معه لاعداد القبر . وحين قام ، قال كأنه يصدر بكلمات :

- جهزوه بسرعة . . . وحين ينتهى القبر أرسل اليكم لتأتوا به .

قال المختار بطريقة لا تقبل المناقشة أبدا :

- عساف يدفن هكذا ..

ولما بدأ المسنون يحاورونه ، هز رأسه ويده اليسرى دلالة أنه لن يسمع ولن يفهم ما سوف يقال ، وحين ألحوا صرخ :

- هكذا قال لي الجنود والضباط حين سألتهم عن ابني وعن الجنود الآخرين الذي يقتلون في المعركة . انهم يدفنونهم بشياهم ، لان هذه الشياح اقدس من جميع خام المدينة .

وبطريقة هادئة أضاف :

- ثم انتم تعرفون : الطيبة لا تجد من الخام ما يستر الاحياء فكيف تستطيع في سنة مثل هذه أن تستر الموتى ؟

وعاد الى لهجة الحسم :

- عساف لم يمت موتا طبيعيا . مات من أجل الطيبة ، مات شهيدا وما دام في حياته رضى أن يكون بهذا الشكل ، فإنه لن يرضى أن يغير شكله في اللحظة الأخيرة !

وبتسليم أقرب الى المرارة ، ولان الامر أصبح أكثر تعقيدا مما تصور الكثيرون ، لقد رضخوا لما أراده المختار . كان لدى الجميع شعور قوى بضرورة انهاء هذه المشكلة كيفما كالت النهاية ، لان مجرد بقائها سيؤدي الى تعقيدات لا يمكن أن يحلها العقلاء أو المجانين !

واذا كانت تلك الليلة من الليالي العجيبة في حياة الطيبة ، فان ما تلاها لا يقل عجبا عن ذلك .

فما كادت الشمس ترتفع ذراعا ، وبعد أن أرسل العم زكو رسلا عديدين ، وأكده هؤلاء ان القبر أصبح جاهزا ، والان الامر لا يحتمل التأخير ، ظل المختار يرفض باصرار يقرب حله الاحتقار ويؤكد أن الوقت ليس مناسبا . وبعد ذلك الالاحاج جاء العم زكو بنفسه ، وبطريقة تمتزج فيها العصبية بالمكر ارتفع صوته مهلدا رافضا أن يتدخل أحد في هذا الامر الذي لا يعرفه غيره ، صرخ المختار وكأنه يتأثر من كل شيء :

- اسمعوا يا أهل الطيبة : عساف ليس لثنا ولا قاطع طريق لكي

تستروا عليه وتدفنوه فى الظلام : لقد مات من أجلكم ، وما دام الامر حصل بهذا الشكل ، ورأيت ذلك بعينى ، فيجب أن يدفن عندما ترتفع الشمس فى السماء ، وعندما يعرف أهل الطيبة !  
وحين أكد الجميع ان الطيبة تعرف كل شيء ، وانها تنتظر اللحظة التى يخرج فيها جثمان عساف لكى يشترك الجميع فى تشييعه ، قال المختار :

- اتركوه يراكم كلكم . انه يحب كل واحد منكم ، ويريد أن يرى ويسمع كل شيء بنفسه !

فى وقت ما ، ولا يعرف اذا كان الوقت الذى أراده المختار أو الذى أراده الآخرون ، حمل عساف . خرج من المضافة محمولا على نعش وملفوا بقماش اسود ، ويؤكد جميع من رأى المشهد أن عساف لم يكن محمولا وانما كان يطير . كان طائرا ينتقل من مكان لآخر أسرع مما كان يفعل الطير . لم يبق أحد من الطيبة الا وخرج لتشييع عساف ، ولم يبق أحد الا وحاول أن يفعل شيئا . الذين لم يستطيعوا المشاركة فى حمله ، ركضوا الى جانب النعش ، والذين لم يستطيعوا الامرين معا ، فقد حاولوا أن يفعلوا شيئا آخر . والطيبة التى خزنت منذ وقت بعيد أسلحة كثيرة ، وكان الكبار يعتزون وهم يتحدثون عن هذه الأسلحة ، كيف حصلوا عليها وكم دفعوا ثمنها لها واية مزايا رائعة لها عندما حاربوا بها ، فان معظم هذه الأسلحة قد خرجت دون اتفاق سابق ، ودون ترتيب مقصود ، والذين أحسوا بخطأهم حين جاءوا دون سلاح ما لبثوا أن بعثوا من أحضر لهم السلاح . بعثوا بابنائهم ، أو باقربائهم . لحظات فترة قصيرة بدت الطيبة غريبة المنظر واشسبه ما تكون لحظة من لحظات الحياة الكبرى ، اللحظة التى واجهت فيها العدو قبل عشر سنين ، ومنعته أن يتقدم ، بعد أن فقد الكثير من جنوده .

ومن بيت المختار حتى المقبرة ، كانت أصوات عمياء وأيد عمياء هى التى تحرك هذا الموكب الذى لم تر الطيبة مثيلا له . والمختار الذى كان يحتفظ ببيته بثلاث قطع من السلاح تخلى عنها كلها وأخذ بندقية عساف القديمة معه . كان وهو يملأها بين لحظة وأخرى ، كان وهو يطلق بين لحظة وأخرى . كأنه فى عرس . كانت أصوات الطلقات تملأ الفضاء ، وحتى الذين لم يملكوا من الطلقات الا القليل ، وحاولوا الاحتفاظ بقسيم منها لآوقات أخرى ، فقد عوضوا عن ذلك كله بالأصوات المفاجئة العمياء الحادة التى يطلقونها ، كانوا يصرخون



صرخات لها وقع التحدى ، وان كانت دون معنى أغلب الاحيان ، او متداخلة الجرس بحيث انها لا تفهم ، وتوافق الصرخات الايدى وهى تنقل النعش بسرعة وتدفعه بقوة ، تريده أن يسبح فى الفضاء ، أن يطير .

رغم السرعة والمهارة ، فان الموكب تأخر كثيرا حين وصل الى التل الجنوبي ، لانه مر فى احياء لم يقدر أحد أن يمر فيها ، ولأن عقولا مجنونة دفعته فى تلك المسالك ، وكأنها تريده أن يرى كل شئ فى الطيبة قبل أن يفادها ، قبل أن يغيب تحت التراب . وخلال ساعة او أكثر قليلا ، ومع الزغاريد وطلقات الرصاص والركض المجنون ، ولا يعرف أية أشياء أخرى ، وصل عساف الى حيث يجب أن يدفن . وهناك . . فى بداية المقبرة على السفح الجنوبي ، كانت جموع كثيرة تنتظر . لا يدري أحد كيف تجمعت هذه الجموع ومن أين أتت . كانت من القرى المجاورة ، وحتى من القرى البعيدة ، وقد جاء هؤلاء بوسائل نقل عجيبة ، بالباصات الكبيرة ، بالشاحنات ، حتى أطفال القرى المجاورة جاءوا على الدواب أو على الدراجات . واذا كانت هذه الجموع قد انتظرت عند المقبرة ، فلأن أحدا من أهل الطيبة لم يعرف كيف تسير الجنازة أو الى أين ذهبت ، وقد اقترح أحد وجوه القرى القريبة أن يكون اللقاء عند المقبرة . وبهذه الطريقة بدأت أفواج البشر والاليات والدواب ، وكان يدا سحرية هائلة الحجم جمعت كل هؤلاء ثم بعثتهم بهذا الشكل .

وما كادت الجنازة تبدأ وتبدأ صعود السفح ، حتى انفجر الصوت فجأة : لا اله الا الله . . لا اله الا الله . . لا اله الا الله . وبسرعة انفجار الصوت نفسه كانت تلك الركضة السريعة الاقرب الى الرقص وهى تتجه للمشاركة فى حمل النعش . لقد أدى الامر الى ما يشبه الاضطراب والغموض ، اذ ما كادت الايدى الجديدة تتلقى عساف ، ودون تقدير سابق أو اعتبار للوزن وطريقة الحمل ، بدأ النعش يموج فى حركة نصف دائرية سريعة . ولقد قال الكثيرون ، انهم شاهدوا النعش يطير ، ولم تكن أية يد تحمله أو تمسه . ورغم ان المسافة لا تتجاوز المائتى متر بين بداية السفح والقبر المقترح فقد احتسب وصول عساف وقتا طويلا .

وليس رجال الطيبة وحدهم يتصفون بذلك المقدار الكبير من الجنون والتسامح والحنان والقسوة والقدرة على التحدى والغضب . . ان نساء الطيبة كذلك .

وحتى وقت متأخر ، لا يدري أحد كيف حصل الامر ؟  
 ما كاد عساف يصل المقبرة ، حتى كانت نساء الطيبة قد تهيأن لاستقبال  
 يليق بهذا الرجل . ودون أن تبدو أية مظاهر خاصة أو مختلفة ، وما  
 كاد العش يقرب ، ثم يوضع على الأرض ، تمهيدا للحدود ، حتى  
 تجمعت النسوة على شكل دائرة ، وبطريقة تختلط فيها كل مظاهر  
 الحزن والفرح واللذة والجنون والغضب ، وبحركات ادائية لا يتقنها  
 الا من احترفها لفرط ما تعود عليها ، بدأت الرقصة منتظمة موزونة ،  
 وكانت الصرخات ترافقها وتعطيها انتظاما ادق ووزنا أوضح . ومع  
 الحركات والصرخات ، كان الرجال يمارسون عملهم بنوع من الاتزان  
 المفرط ، وكان العم زكو سلطانا في تلك اللحظات ، فحين يطلب رفع  
 عساف من التابوت ، ومساعدته لانزاله الى القبر ، كان يفعل ذلك  
 باتقان شديد ، والرجال الذين يقومون بما يطلب منهم ، كانت تبدو  
 حركاتهم مضطربة بعض الشيء ، لكن لا تلبث أن تستقيم وتتوازن ، ثم  
 حين وضع عساف في القبر ، بدأت اشارات العم زكو واضحة حين  
 طلب مناولته الحجارة الرقيقة المستطيلة التي تستعمل غطاء ، ثم تلك  
 الحجارة الصغيرة التي تسد الثقب ، ثم التأكد من الزوايا والاطراف .  
 حتى اذا انتهى من أداء هذه الاعمال بمهارة ، وكان الرجال يستجيبون  
 بخفة وقد ملأهم الصمت ، كانت حلقة النساء تزداد عنفا وسرعة ،  
 وبلغت في احدى الملاحظات مرحلة من الانفصال الى درجة أن بعض  
 النساء رمين الاغطية عن الرؤوس ، واخرى أمسكن بأغطية خاصة  
 وبدأن نوعا من الرقص الهستيري ، وبين فترة وأخرى ينفجر صوت  
 يعطى لهذه الحركات وقعا جديدا ، ويجعلها أكثر اشتعالا .

كل ذلك كان يجري دون اعتراض من الرجال أو تدخل ، وهذا الامر  
 الذي لم تفعله الطيبة الا قبل عشر سنوات ، حين وقع بعض الرجال  
 ضحايا القوات الاجنبية ، وجاءوا بهم الى الطيبة لكي يذبحوا هنا ،  
 اذا كان هذا قد جرى لأولئك الرجال في وقت بعيد ، فالطيبة التي  
 اكتسبت جزءا من عادات البدو ، كانت تكره أن تمير عن حزنها بهذه  
 الطريقة ، لكن حين يبلغ الحزن درجة تفوق احتمال الناس وقدرتهم ،  
 فانها تفعل كل ما تريد . والطيبة التي كانت ترى كثيرا من المفاجأة  
 قد تصل حدا لا ترضاه ، تعودت أن تمنع النساء من الخروج الى المقابر  
 أو المشاركة في عمليات الدفن ، وكانت تريد أن تنفخ يدها بأسرع  
 الطرق من « الوديعة التي اختارها الله » . لكن الطيبة ذاتها لا تستطيع  
 أن تفعل كل شيء نتيجة رغبة بعض الناس الموزونين المتعلمين ، انها في

أحيان كثيرة تفعل ما تعتبره ضروريا ، وما تعتبره وحده الذى ينقذها مما هو أدهى وأصعب . ولذلك فحين رأى الرجال النسوة ، مثل كتلة سوداء فى منتصف السفح فقد داخلهم شعور قوى بالحزن ، وأحسوا أن عساف كان أكثر من مجرد رجل من الرجال الذين كثيرا ما وارت الطيبة أجسادهم تحت الأرض . بدا لهم كبيرا ، مهما ، وبدا أن أحدا لا يصدق ولا يطيق أن يذهب بهذه السرعة وبهذه الطريقة ، ولذلك ومع كل خطوة ، وحتى حفنات التراب الأخيرة ، والتى شارك فى القائها جميع الموجودين ، بمن فيهم الأطفال الصغار ، عدا تلك المجموعة الصغيرة من النسوة اللواتى ظلت فى حالة من الهياج والدوران ، ولم يفتن إلى ما كان يجرى حولهن - حتى حفنات التراب الأخيرة كانت مثل سكاكين صغيرة تنغرز فى القلب . وملا الصمت المكان . أما الخطوات الصغيرة المثقلة ، وهى تنزلق عن السفح ، فقد بدت وهى تنتزع نفسها من الأرض بقوة ، وكأنها لا تقوى على فعل أى شيء . وحين نزل الرجال ، وأصبحوا قريبين من الباصات والشاحنات ، لم يكن يرى فى منتصف السفح سوى العم زكو وإلى جانبه أحد الزعاة يمسك شبابته بقوة ، وكانت ملامحه شديدة الصلابة والخشونة ، ونظراته بعيدة . وكأنه يستعيد صوتا معينا من جبال الطيبة وأوديتها ومن الصحراء أيضا . كان الراعى ينتظر ليبدأ شيئا ما ، وحول الاثنين بعض الصبية ومجموعة من النساء . كانت المجموعة تصفر وتتلشى دقيقة بعد أخرى . نتيجة الأعياء والسقوط على الأرض ، وكانت حركات الجميع مليئة بالعصبية ، وكأنها انتقام من كل شيء ، وكانت النساء واحدة بعد أخرى . نتيجة الإرهاق الذى وصل حده السقوط ، تدفن وجهها فى التراب وتفرق فى موجة عاتية من البكاء والصراخ ، وبدا أن الطيبة . . رجالا ونساء تبكى نفسها بشكل لم تفعله من قبل ، لكن إلى جانب البكاء كان الغضب .

اذ ما كاد المختار يقترح - وكان شديد الاتزان ، ويبدو أن حالة عالية من الصفاء سيطرت عليه فى تلك اللحظة - أن يذهب عدد من الناس مباشرة من المقبرة إلى المدينة ، لكى يبحث موضوع السد للمرة الأخيرة ، ما كاد المختار ينتهى من كلامه حتى كانت الاستجابة اكبر وأكثر مما تصور أى انسان ، ولم يقتصر الامر على أهل الطيبة وحدهم . اذ أبدى عدد كبير من رجال القرى المجاورة رغبتهم فى أن يذهبوا معهم إلى المدينة .

خلال دقائق ، وبعد أن أعاد الرجال الاسلحة ، مع ابنائهم وأقاربهم

إلى البيوت ، وقالوا لهم بوضوح : « انتبهوا وأنتم تهمّلونها ، ثم يجب أن تنظف .. لاننا قد نحتاج اليهسما في وقت قريب » .. بعد ذلك بدأت السيارات ، الواحدة بعد الأخرى ، بأشكالها الكبيرة والصغيرة ، القديمة المتعبة والتي لا تزال تتحرك دون دفع أو انتظار ، تأخذ الطريق المتجه إلى المدينة ، وبدأت مثل شريط شديد النتوء وغريب الملامح ، وكان الرجال في أغلب السيارات صامتين . أما حين تجاوزوا الطيبة ، وقبل أن يتركوا الطريق الترابي الصعب لم يدخلوا في الطريق الأسفلتي العريض ، فقد التفت أكثر الناس إلى المكان الذي أشار إليه أهل الطيبة ، وهم يقولون : « من هنا الطريق الذي يوصل إلى المكان الذي يبنى فيه السد » . أما المختار ، الذي ظل صامتا طوال الوقت ، فقد سمعه الذي يجلس إلى جانبه يقول :

« لن أعود إلى الطيبة مرة أخرى إلا لأحمل بندقية وأبقى في الجبل ، ومن هناك ومع الآخرين سوف نعمل شيئا كثيرا نغير الصيد . أما إذا وافقوا على بناء السد فسوف أعود على ظهر بطحوزر لكي يبدأ العمل ، ولكي تبدأ الطيبة تعرف معنى الحياة بدل هذا الموت الذي تعيشه كل يوم . »

وخيم الصمت من جديد .. ولم يكن يسمع سوى دوى السيارات على الطريق الأسفلتي وهي تتجه إلى المدينة .



روايات الهلال تقدم :

# الهلافت

كوميديا ريفية

تأليف :

محمود دياب

تصدر ١٥ أكتوبر ١٩٨٦

رقم الايداع بدار الكتب والوثائق القومية ٨٦/٤٧١٠  
الترقيم الدولي ٩ - ٢٥٧ - ١١٨ - ٩٧٧ ISBN

# اشترك في روايات الهلال

الكويت السيد عبد العال بسيوني زغلول  
الصفاء - ص ب رقم ٢١٨٣٣  
تليفون ٧٤١١٦٤

---

( اسعار الاشتراك على الصفحة الثانية )





LIBRAIRIE ARABE

«L'OLIVIER»

5, rue de Fribourg  
1201 Genève-CH  
Tél. 022/318440

## هذه الرواية

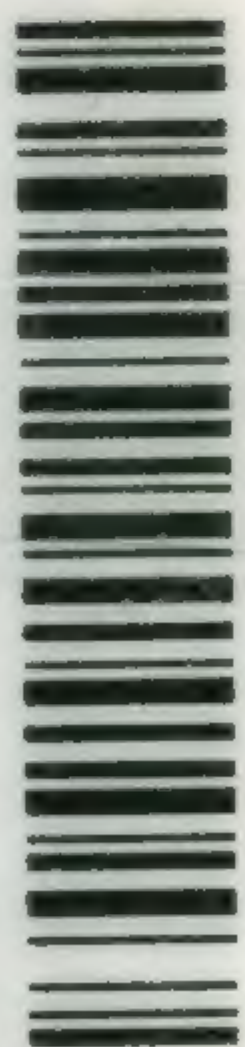
« الرواية الأولى التي تنشر في القاهرة للروائي العربي الكبير عبد الرحمن منيف ، صاحب « الأشجار واغتيال مرزوق » و « شرق المتوسط » و « سباق المسافات الطويلة » و « مدن الملح » ..

و « النهايات » هي رواية البادية بامتياز : رواية الصيد والمواسم والخصب والمطر والجفاف والقحط والحب والطير ..

قال عساف لأهل الطيبة : لم يخلق الصيد للأغنياء للذين يقتلهم الزهق والشبع .. لقد خلق للفقراء ، لا لئلا يملكون قوت يومهم ..

لكن أهل الطيبة لم يستمعوا لهذه الكلمات ، غافوا ، غافوا ، وأصرروا على أن يتلهاوا بالصيد .. فخرج معهم ليموت دونهم ! .. »

Bibliotheca Alexandrina



1062957